



## دراساتٌ عربيةٌ وإسلاميةٌ

١٠

- موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية ..... أ. د. محمد شامة ..... ٥
- المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة ..... أ. د. حامد طاهر ..... ١٥
- فلسفة التاريخ الإسلامي ..... أ. د. عبد الحميد إبراهيم ..... ٢٥
- صعوبات أسلوبية في كتاب مبيوه ..... أ. د. عبد الرحمن الوبي ..... ٣٥
- مظاهر معاصرة الجليلين  
لدى شيخ شعراء الخليج ..... أ. د. أحمد درويش ..... ٥٥
- ملامح الشاعر بريشة القصاص ..... د. إسلام قنري ..... ٨١



يشترك في إصدار السلطة

أ. د. محمد حسنة عبد اللطيف  
أ. د. محمد عبد اﻻدى سراج  
أ. د. أحمد درويش  
د. رفعت القرنواى  
د. سلوى ناظم  
د. حسن البندارى

المراسلات : د. حامد طاهر - كلية دار العلوم جامعة القاهرة - ج. م. ع.



## بسم الله الرحمن الرحيم تقديم الجزء العاشر

تمحيصاً منذ الجزء الأول أن تفتتح هذا التقديم بحمد الله وشكوه الموتى لنا على الاستمرار، ومواصلة هذا الجهد الذي نرجو أن يكون خالصاً لوجه تعالى، وأن نقدم به الثقافة العربية والإسلامية على المستوى العلمي الذي يستلزم في دراسات جادة يقوم بها أساتذة متخصصون من مختلف الجامعات المصرية، والعربية، والإسلامية.

ولكننا مع صدور هذا الجزء ملاحظة عامة: وهي أن الدراسات المتعلقة بالجانب الإسلامي ما زالت أقل من مثيلاتها المتعلقة بالجانب العربي (الثقافي والأدبي). وهذه الملاحظة، النابعة أساساً من تعاملنا المباشر مع التخصصين في مجال الدراسات الإسلامية، وخاصة الفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والحديث... تدق ناقوس الخطر للقائمين على الأقسام العلمية في الجامعات، ومراكز البحث النافذة لكي يدركوا أن التمييز بين مجال الدراسات الإسلامية نادرين للغاية. وربما كان هذا الأمر صعباً، لأنه يظهر في الوقت الذي تمتلئ فيه المكتبات بمؤلفات دينية لا حصر لها. لكننا نقصد الدراسات الجادة ذات الطابع العلمي الوثيق، والتي تأخذ صورة البحث أو المقال ذي الموضوع الواحد، والنتيجة المفصلة.

لما الدراسات الشعرية والأدبية، فإننا ما زلنا ندعو أصحابها إلى مزيد من ارتقاء ميادين جديدة، وتجربة ظروف جديدة، بالإضافة طبعاً إلى ما يذلوله حالياً من تصنيف ونقد العروة القديمة التي تراكت بكثرة في هذا الميدان.

إن الشكافة العربية والإسلامية لن تزدهر إلا إذا تناولت كل فروعها بعضها مع بعض، وليس هذا فحسب، بل لابد من أن تراعى أيضاً ما طرأ على العلوم التجريبية من تطور، وألا تغفل بعد ذلك كله ما يجري في المجتمع المعاصر من حركة وتجديد مستمرين.

وبهذا يتبين أن يقال إن الباحثين الجامعيين يواكبون عصرهم، ويعملون على حل مشكلاته، ويسهمون في تنويره.

والله ولي التيقن

حسانه طاهر

١٤١٩ هـ - ١٩٩٠ م



## موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية

أ. د. محمد شامه \*

أثرت المجتمعات الإنسانية على اختلاف مذاهبها السياسية والاقتصادية على الملكية الخاصة ، رغم ما بينتها من تفاوت في تحديد مجال هذه الملكية ، إذ يسود في كل قطاع الأرض مبدأ ، أن ما للإنسان من منافع وأموال لا يجوز لأحد اقتصابه ، فليس للإنسان ، كائناً من كان ، أن يأخذ ما ليس له ، وإن ساعدته الظروف على أن يأخذ عنه ، فإنه يظل في دائرة عدم الشرعية ، فلا يقره قانون ، ولا يرضى به ضمير الجماعة الواسع ، المترك للحدود الفاصلة بين حقوق الأفراد والجماعات ، بل أن التنازع والتطاحن على الملكية والسيطرة يعطى الانطباع بأن هناك أسوا ، لا يملكها الإنسان ، ولا يجوز له . على الأقل في رأي أحد الطرفين المتنازعين . الاستحواذ عليها ، أو الانفراد بتمتعها دون الآخرين .

يسرى هذا المبدأ على كل ما يسيطر بالإنسان ، ويحرص كل المجتمعات المتحضرة . بل والبدائية في غالب الأحيان . على تثقيبه وتعليمه للأطفال ، بل ولذكور الكبار به بين الحين والآخر ، غير أن هناك مجالاً واحداً تعارفت البشرية على شيوعه بين شعوبها ، فلا يحرم منه الناس ، ولا يتركونه وبين طالبه أحد ، بل أن صاحبه يحرص على أن يصل إلى كل الناس ، بل يزداد سروره كلما رأى الجماعات البشرية تسعى للحصول عليه ، ذلكم هو **الانتاج الفعلي** ، وهو ما تشره أقلام العلماء والفلاسفة ، هو العلوم الإنسانية بجميع فروعها ، فالتعلم . كما قالوا . لا وطن له ، وصاحبه لا يحرص على احتكاره ، لأن من طبيعته الانتشار ، ومن لوازمه أن يصل إلى الناس ، فهو لا يخرج من منطقة الابداع في الإنسان . سواء كان ذلك في صورة التعليم والتثقين الشفهي ، أو مسطوراً بالكتاب . لا يعتمد توصيله للآخرين ، وانتفاعهم به وتصرفهم فيه تصرفاً مطلقاً ، فلا أحد يحرم عليه استعمال نتائجه في جميع مجالات حياته ، وما تسمعه اليوم من تحريم

\* أستاذ ورئيس قسم الدعوة والفتاوى الإسلامية بكلية الشريعة ، جامعة قطر .



تقبل التكنولوجيا... وهي من نتائج العلم المتشاع بين الناس جميعا... من وطنها إلى الأوطان الأخرى فلا يخل القاعدة التي يجب أن يكون عليها وضع إنتاج العقل البشري، من أنه يجب أن يكون في متناول كل بني الإنسان، لأن هذا الإجراء... وهو تحريم انتقالها... يخل بتجربة عشرة في سبيل تقدم الشعوب، لجأ إليه أثبات لا يجب إلا بنى جلده، أو جوارير يد أن يسيطر بامتلاكه هذه التكنولوجيا على مقادير الشعوب الأخرى، ويحدد مصائرهم، أو مستغل يبل إلى أن يملك وحده ما يدير هذا الجانب من أموال مضمنا في سبيل ذلك بالقضية التي تهم البشرية جمعاء إلا وهي العمل على تقدم كل المجتمعات الإنسانية حتى لا تتفل التقنية بيننا عميقة.

ورغم القيود التي وضعها أمثال هؤلاء الناس أيام انتشار الإنتاج الملمس فإن طبيعة وضعها في حياة الأمم والشعوب سوف تتطلب حل هذه القيود لأن الانتشار خاصة من خواص العلوم فلا بد أن تكون النقلة غا.

كذلك ترفض مجتمعات قبول بعض الاتهامات الفكرية، فتقيم الجواز بيننا وبين انتشارها بين المواطنين، وتنحذ من الإجراءات ما يهول بين الناس وبين معرفة هذه الاتهامات، أما خيولا على عقيدتها، أو حفاظا على سلطان المؤسسات الثقافية والتعليمية في بلدنا، لأنها ترى أن هذه الأفكار مستقوض من سلطتها على نفوس الناس، فذلك أيضا وضع غير طبيعي... خاصة في عصرنا القاهر، حيث ذابت الجوايز الثقافية والإعلامية بسبب التقدم الحائل في مجال الاتصالات اللاسلكية سواء كانت مسنوعة أو مبرأة... ينبغي تركه، كمن يعود الأمر إلى وضعه الطبيعي وبأخذ انتشار الأفكار بين المجتمعات البشرية طريقة السلم.

فإذا وضعنا هذه المسألة بأبعادها المثقلة أمام الإسلام، لم نجد فيه إلا حثا على طلب العلم وتحسينه، وتحذيرا من كتمان الحكمة والرأي الذي فيه نفع للناس، ففي مجال طلب العلم يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فرقة على كل مسلم ومسئلة) ويقول: (اطلبوا العلم ولو بالعين) ويقول: (الحكمة خزانة المؤمن فأنس وجدها فهو أحق بها) كما ينفي القرآن الكريم أن يكون هناك مساواة بين من يعلم ومن لا يعلم فيقول: (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما ينظر كركوا الأبواب) (١).

وفي مجال وجوب تعليم الآخرين حذر الله المسلمين من أن يكونوا مثل من كتبوا الحق، لأن من يفعل ذلك يصبه ما أصاب هؤلاء الذين منعوا تعليم غيرهم فقال: (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليعلموا للناس ولا تكتُمونه، فبذلوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا، فبئس ما يشترون) (٢).

١- الزمر ٩.

٢- آل عمران ٧٥.

وقال : (إن الذين يكتمون ما آتوا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ولعنهم اللاعنون) (٢) .

هذا هو موقف الاسلام من قضية العلم والتعليم ، لا يحرم على المسلمين تعلم أفكار الآخرين ولو بدعت أو طائش ، ويحذر من احتكار الانتاج العقلي ، لأن مبادئه جاءت مطابقة للطبيعة البشرية ومن خصائص هذه الطبيعة أن يكون العلم كلاً متاحاً لكل الناس .

أثر هذا الاتجاه على المسلمين ، فاطلقوا يفرقون من منابع العلم في كل مكان ، لا يتعمق جنسيته أو عقيدته ، فأخذوا من الفرس والآخرين وغيرهما من شعوب الأرض على اختلاف تراثاتهم وتعدد أفكارهم ، ويعتبر هذا أن تحدث عن موقف الفكر الاسلامي من الفلسفة اليونانية .

بدأ الاتصال بين العرب والثقافة اليونانية قبل الاسلام ، إذ عندما أغلقت مدارس الفلسفة في أثينا واضطهد الفلاسفة ، فرجوعة منهم صوب الشرق حيث لعبوا دوراً كبيراً في ازدهار المدارس الفلسفية التي نشأت فيه ، وعطلت مدارس اليونان في حل الفلسفة اليونانية .

كان العرب قبل الاسلام على اتصال بتلك المدارس ، إذ قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية في العراق وما حوله فالتصّل بتراثهم بعض اللهامين بالثقافة من العرب مثل الخوارزمي كسلعة ، ومن بعده ابنه النضر بن الخوارزمي الذي يمكنه عنه ابن ابي عمير في كتابه « طبقات الاطباء » بأنه اطلع على الفلسفة وأجزاء الحكمة .

كذلك البتة الأبحاث الحديثة بصورة قاطعة أن مراكز البحث الفلسفي كانت منتشرة في العالم القديم الذي فتحه المسلمون وأن هذه المراكز لم يتوقف عملها العلمي بعد الفتح الاسلامي ، بل استمر الاتصال بها في ظل الدولة الاسلامية ، فهم يحدّثونا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان من اهلهم قريش بفنون العلوم ، وكان له كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان يصيرا يهملين العلمين ، مشتقاً لها وله رسائل دالة على معرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانوس ، وله فيها ثلاث رسائل تفيضت احداها ما جرى له مع مريانوس ، وصورة تعليمه منه ، والرمز التي أشار اليها .

و يقول ابن التميمي : « ان خالداً عني باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وكان عظيم شاعراً فصيحا حازماً ، وهو اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ، ولانسنس ان المدارس الفلسفية في العكاكيه وحران والرها وتصبين استمرت في تأدية عملها العلمي في ظل الدولة الاسلامية ، كما لا ينسى احد مآثره الدولة الاسلامية من جهود في مجال ترجمة التراث

اليوناني ، بل لا ينبغي لأحد أن ينكره أو يتناساه ، لأنه عمل علمي لم يحدث مثله في تاريخ البشرية قاطبة .

من هذا نرى أن الثقافة اليونانية كانت حل عبادة المسلمين في الأقطار المختلفة ، أخذوا منها وتعلموها ، حتى من لم يكن على دينهم ، بل اتهم تعلموا منها ما لم يوافق دينهم فذكر ابن كثير أن عليم الأوائل — أي الفلسفة اليونانية وعلم التنجيم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الإسلامي — نقلت في اللغة الأولى . ثم يزيد هذا الكلام توضيحا ما ينقله ابن الشيرازي في كتابه « الأسفار الأربعة » : إن المتكلمين الأوائل في عهد بني أمية عرفوا الفلسفة اليونانية حين نقلت بعض كتبها إليهم ... ويقولون إن هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التي عرفوها ، وجعلوها أساسا لفلسفتهم .

و يلاحظ الباحثون في كتابات المتكلمين الأوائل من أمثال أبي الغليل الملاف ، وعشام بن الحكم وغيرها معرفة واسعة بالفلسفة اليونانية وتداولها لمصطلحات فلسفية ، مما يدل على أن الاتصال بين المسلمين وبين الثقافة اليونانية كان قويا مؤثرا على الحياة العقلية في المجتمع الإسلامي .

فقد وجدت في ظل الدولة الإسلامية مدارس للفكر اليوناني كانت استمرارا لمدراس ما قبل الإسلام ، كما نجد في ظل الدولة الإسلامية سُملة للفلسفة كانوا خلفاء الأفرقيق ومن أتوا بعد الأفرقيق من الرومان والعبريين .

أصبحتنا نجد بعد انتشار الإسلام ديناً واحداً هو الإسلام بعبارة فلسفة سياسية واحدة ، وأصبحتنا نرى أيضاً مجالس لتعليم الدين الإسلامي ، وللتلمذ في فهم القرآن والسنة بعبارة مجالس أخرى لتعلم اليوناني والفلسفة اليونانية .

#### لما هي يائري أسباب قبول الفكر الإسلامي للفلسفة اليونانية ؟

أهو الميل العقلي وحده لدى بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة ، أكان السبب في قبول هذا البعض للآراء الإغريقية في الألوهيات لأنها وليدة العقل الانساني ؟

#### أم هناك شيء آخر وراء هذا الميل دفعهم إلى قبولها ؟

إذا البرغبة العقلية لدى الإنسان ما تساعد بحسب على تناوله عملا عقليا ، وعمل النظر فيه ، وعدم طرحه بإحدى ذي بدء ، ولكنها قد لا تكفي وحدها في تعليل قبوله لهذا العمل العقلي والحرص عليه ، أو التأثير به . فوجد هذه الرغبة سبب مهم . فقط للقبول ، وقبول المسلمين لنفسه الآراء الإغريقية حينئذ ليس لأن من قبلها منهم كان ذا ميل عقلي فحسب بل لأسباب أخرى أهمها : الدقة التي كان عليها المنطق الأرسطي وغيره من العلوم الرياضية ، وأثر هذه الدقة في تلبية

المسلمين العرب التي لم تألف قبل ترجمتها أسلوب الانتفاع ، ولم تنعده الاسعة الخيال ومرونة ، وتوجيه في التصور .

لكن خلوصهم في الاقتناع بهذه الدقة جرهم الى الاعتقاد في عصمة العقل الاخر بقى في الهجاءات الاخرى ، قد افهموا عنه بكل الطرق ، وفي هذا يقول الغزالي . « وقد تولد عنها - أي المعلوم الرباطية - ان من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براحتها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، ويحسب ان جميع علومهم في الوضوح وولاعة البرهان كهذا العلم » .

كانت هذه الدقة أشبه بانغراء العقل الاسلامي على اقدامه على قبوله لنجاحية الالهية والانسانية من الفلسفة الاخرى . وتناول ما فيها بالشرح والتوضيح ، ومحاولة التوفيق بينها - وخاصة فيما يتعلق بالالهييات - وبين العقيدة الاسلامية . وله اشهر هذا العمل الفارابي حتى أطلق عليه : التوفيق والشارح ، وكان متأثرا في عمله هذا بمدرسة الاسكندرية ، اذ من المعروف أنه بعد أن نقلت الفلسفة من أثينا وروما إلى الاسكندرية تصب العمل الفلسفي في الترتين الثنتين عاشت فيها الفلسفة في مدينة الاسكندرية في السبعة قرون الأولى بعد الميلاد على التوفيق والانتخاب ، وهو توفيق وانتخاب من مدارس فلسفية اخرى ، وقسم المنتخب بعينه الى بعض في وحدة واحدة مع ملامة بينه وبين ديانة شعبية ، أو بينه وبين المسيحية .

وعندما نقل مركز الفلسفة من الاسكندرية الى النطاكية ، ثم الى بغداد كانت الفلسفة المنقولة حيازة عن مزيج من :-

١ - من عدة مدارس اخرى ، وبالأخص من مدرستي : افلاطون ، وأرسطو .

٢ - ومن ديانة أخرى شرقية [ كاثولائية واليهودية والبرهمانية ] ، أو مسيحية .

وإذا قلنا ان طابع الفلسفة المنقولة كان مزيجا من الأفلاطونية والأرسطية والرواقية والتصوف الشرقي لم يكن ذلك القول غريبا فهي في الواقع تمثل كل هذه المدارس ، وكل الإنتماءات الثقافية ما بين انسانية ، ودينية ، وثنية .

وعندما وصلت الفلسفة عن طريق المدارس المسيحية في الشرق الأدنى الى المسلمين وصلت اليهم وهي تجمع كل هذه العناصر ، لكنها وصلت اليهم مغلقة بغلاف آخر . وصلت اليهم وقد عثرت مسيحية صوفية شرقية ، وليها تأييد « بوحدة الأول » و « بساطته » ، وفدا حريا للمسلمون أول الامر وقدروا فيها « عصمة الحكمة » .

ومن أجل ذلك أيضا استبعدوا أن يكون للحكام الاخرين مقصد يتعارض مع الاسلام طالما يتقنون : « بالوحدة » في العلة الأولى ، وطالما يرون الزهد طريقا لمساعدة الانسان ، وان أعطى ظاهرا حياتهم ما يفتيد هذا التعارض في بعض الاحيان .

ولأن المسلمين استبعدوا هذا التصدد من الأخرى ، حاولوا أن يوفقوا بين الأفلاطون وأرسطو عندما تبدو بينهما معارضة ، كما حاولوا التوفيق بين فلسفتها من جهة ، والاسلام من جهة أخرى ، ان اعطى قضاة التفسيرات في الجانبين نوعاً من التضارب بينها : والفارابي واحد من مشاهير الفلاسفة المسلمين الذين ظنوا شمول « الحكمة » في نقل الهمم من الفلسفة الاغريقية واللاتين اعتقدوا ان هؤلاء الحكماء من الاخرين يكاد يستحيل عليهم التضارب فيا يقولون .. وان حكمتهم يستحيل عليها أيضا : ان تختلف مع الاسلام . علما بأن ما نقل الهمم يتطوى في واقعته على التضارب ، فواقعته ذو ألوان عديدة كما بينا ذلك منذ قليل ، وهو ليس الا مظهر من مظهر حقيقته لم يتف على حقيقته .

ولحسن ظن الفلاسفة المسلمين - ومنهم الفارابي - بالفلسفة الاغريقية ، وليستهم بعدم تضارب الفلسفة مع الاسلام ، دخلوا التوفيق - وعلى الأخص الفارابي - على أساس « الجمع » بين الآراء الفلسفية ، و« التوفيق » فيا يبدو منها مختلفا بعضه مع بعض او مع الاسلام .

لا اريد ان اكثر من ضرب الأمثلة التي تبين جهود الفارابي في التوفيق ، ولذا سأكتفي بذكر مثال واحد ، الا وهو التوفيق على وجود الله ، ففى هذا المجال يستمر الفارابي من الافلاطونية الحديثة طر يشبهها فيا يسمى « بالجدل النازل » « بالجدل الصاعد » وفي الحديث عن ذلك يستأنس بآية قرآنية ، وهي قوله تعالى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد » ( ١ ) .

ونص حديثه :

« لك ان تلمح عالم الخلق فتري فيه آيات الصنعة ، ولك ان تعرض عنه وتلمح عالم الوجود

الغنى ، وتعلم انه لا يد من وجود الذات .

فان اعتبر عالم الخلق فأتت صاعدا .

وان اعتبر عالم الوجود فأتت نازلا .

تعرف بالنزول : ان ليس هذا .... ذلك

وتعرف بالصعود : ان ليس هذا .... هذا

« سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على

كل شئ شهيد » .

وكان القاري يقول : هناك دليلان على وجود الله :-

الدليل الأول : أن ننظر إلى المخلوقات أو إلى مايسميه هو : بعالم الخلق .. وهو عالم يأتي بعد عالم الأسماء أو عالم اللائكة ، وقبل هذا يكون عالم الربوبية ، أو عالم الوجود الأخرى فتشهد في المخلوقات صنعة تدل على صانع لها وهذا الصانع هو الله تعالى .

وهذا الدليل هو دليل تصاعدي : تنتقل من عالم الخلق إلى الأعلى وهو عالم الوجود الأخرى .

الدليل الثاني : أن ننظر إلى « الوجود الخاص » أي إلى الوجود من حيث هو وجود متصل من هذه النظرة إلى أن هناك واجب الوجود لذاته وهو الله تعالى ، وهو السبب في وجود الممكن ، والممكن هو مايمد الله من عوالم . هو عالم الأسماء أو اللائكة ، وعالم الخلق أو المخلوقات وبالأخص الإنسان .

وهذا الدليل على وجود الله دليل تنازلي ، لأنه من وجود واجب الوجود بذاته : يعرف عالم المخلوقات .. والنقل الآن في هذا الدليل ينتقل من الأعلى وهو واجب الوجود بذاته أو الله .. إلى الأدنى وهو وجوب واجب الوجود بغيره ، أو المخلوقات .

ثم يجعل الآية التي استشهد بها هنا تعطي الطريقتين في الجدل وهما : التصاعد ... من ستمهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق « ... يشير في تشديده إلى الجدل التصاعد . فأشارت الله في عالم المخلوقات ، وفي النفوس البشرية تعطي الدليل على وجود الله الحق ، فهي صنعة ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، والصانع هو الله تعالى : فهو دليل من الأدنى على الأعلى ، دليل المخلوقات على الله ، وعالم المخلوقات لجل لوجود الله ، فكانه هو ... هو » وقوله : « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » يشير في تشديده أيضا إلى الجدل التنازلي ، وهو الاستدلال بوجود الله على وجود عالم المخلوقات فأنه هو الخالق وأما خلقه في وجود هذا العالم ، فوجوده شهيد على وجود غيره ، وهذا دليل من الأعلى على الأدنى والوجود الأعلى غير الوجود الأدنى : ليس هذا ... ذلك ، وهذا التركيب التلصقي للقاري يتكون من عناصر ثلاثة :-

أ) العنصر الارسطي ، وهو عنصر الواجب بذاته ، والممكن بذاته ، وصلة كل منهما بالآخر .

ب) العنصر الاقلاطوني الحديث وهو عنصر توجيه الاستدلال بكل منها على الآخر : هل أن يكون مرة من الأعلى إلى الأدنى ، ومرة أخرى على العكس : من الأدنى إلى الأعلى مع تسمية وجه منها بالجدل التنازلي ، والآخر بالجدل التصاعد .

ج) العنصر الاسلامي وهو ما جاء في الآية القرآنية .

والتوفيق الذي ينسب هذا هو احتواء الآية جملة الفلسفي على مضغون العنصرين الأولين وكان هذين العنصرين يكتنجان معنى الآية القرآنية... وكان الفرقان في اختياره يتبرج من الفلسفة وعلمية التوفيق هي : عدلية « مقدم » و « نال » في قياس منطقي أرسطي .

يجب ألا ينسى الباحثون في هذا المجال أن عمل الفارابي - ومن تبعه من الفلاسفة المسلمين - لا يمثل إلا جانباً من جوانب الفكر الإسلامي إذ من المعروف أن جبهة علماء المسلمين لم يوافقوا على هذا النهج حتى الذين قبلوا الفلسفة اليونانية استثنوا منها الجانب اللغوي ، لأنه لا يتفق مع العقيدة الإسلامية . وليس معنى أنهم لم يقبلوا هذا الجانب من الفلسفة اليونانية أنهم حاربوا من يتعلمها ، أو تعقبوا في رزقه أو عمله ... لا وما يعدلنا به التاريخ من حرق كتب بعض الفلاسفة وانقطاعهم فليس إلا حوادث استثنائية قام بها مجموعة لا تعرف فئة الإسلام في مجال حرية الفكر ، لأن حرب الفكر والمطهارة ليس من طبيعة الإسلام فهو الداعي إلى شد الرحال للتعليم والوبراءمين ، فالعلم في المجتمع الإسلامي كلاً مباح للجميع ، لا يمنع عنه أحد ، ولا تقيد حرية في البحث ، لكن هذا لا يمنع أن تقوم مجادلات فكرية حول ما يتناقض مع المبادئ الإسلامية وذلك أمر لا يتناقض مع طبيعة الفكر البشري ، فانه يتعارض ويتنازع في حدود مجال الجدول الفكري ، وهذا هو ما حدث في المجتمع الإسلامي بالنسبة لأن رفضوا بعض جوانب الفلسفة اليونانية وأشهر مثل حل هذا ما قام به حجة الإسلام الإمام الغزالي فقد صنف الفلاسفة إلى دهرين وطغيين وألهين ، ثم قال :

المصنف الأول : الدهريون وهم طائفة من الأقدمين : جحدوا الصانع الدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة .

والمصنف الثاني : الطغييون وهم قوم أكثروا بحلمهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم نشر بيع انشاء الحيوانات .

ثم بعد أن يبين دقائق بحلمهم يحكم عليهم بالزندقة أيضاً معللاً ذلك بأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وأنموذاه وصفاته ، ثم يذكر أن المصنف الثالث وهم الأخيون ردوا حل المصنفين الأولين من الدهريين والطغيين وأوردوا في الكشف عن اعطائهم ما ألفوا به فبرهم عن القيام بهذا العمل ، إلا أنه يقول أنهم - الأخيون - استنبطوا أيضاً من ردائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفقوا للتخلص منها فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من الفلسفة الإسلامية كآراء سينا والفارابي وأمثالها .

وعلى الرغم من أن الغزالي رمى الفلاسفة كإهم بالكفر والزندقة - سواء كان ذلك بسبب الخرافات مذهبهم كله ، أو بسبب انحراف بعض آرائهم في نظره - إلا أنه حين تعرض لمروج الفلسفة من : رياضية ومنطقية ، طبيعية ، وألوهية وسياسية ، وخلقية ، فإنه قبل جميع فروعها

جملة - وإن هاجم بعض الاتجاهات في كل فرع - إلا فرع الآلهيات ، فقد ذكر أن فيه أكثر أقاليم الفلسفة ، وأربع اعطاءهم في هذا الفرع الـ عشرين ، كقرهم في ثلاثة فقط وهي قوائم -

١ - أن الأجساد لا تنشر وإنما الشباب والعاقب هي الأرواح الباردة والشويبات والمطويات روحانية لا جسمانية .

٢ - وقولهم أن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات .

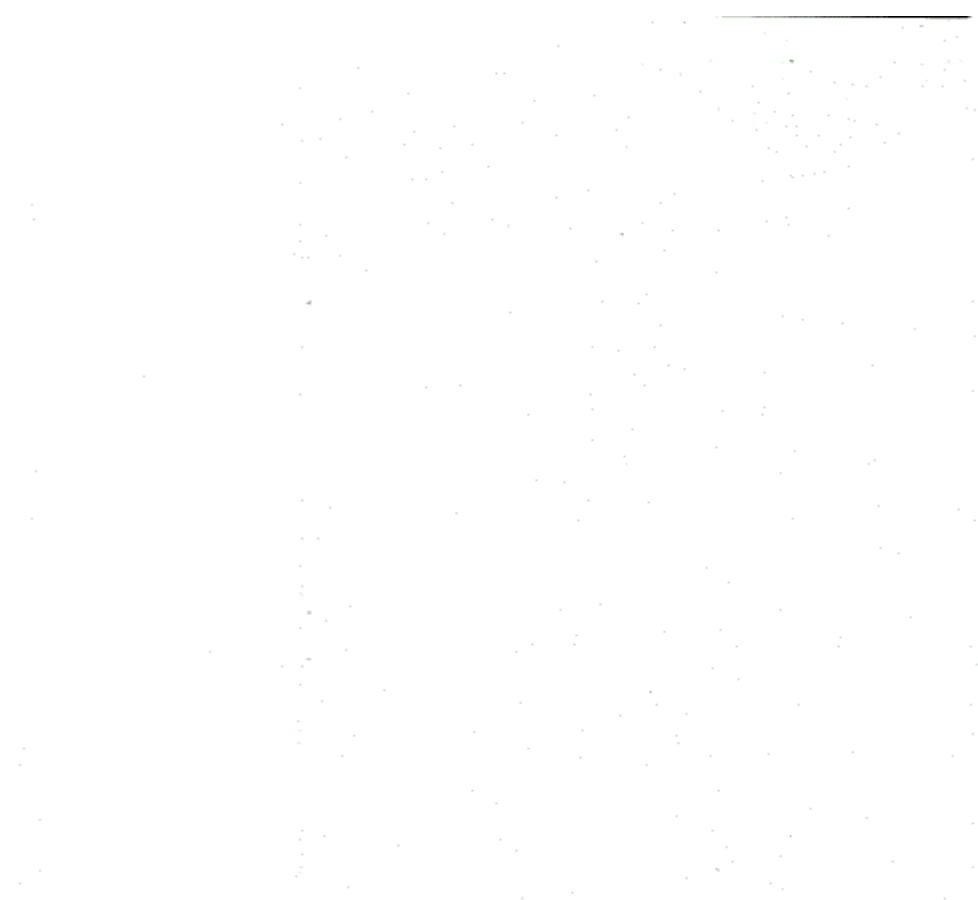
٣ - وقولهم يقدم العالم وأثره .

معقلا ذلك بأن أحدا من المسلمين لم يذهب إلى شيء من هذه المسائل الثلاث . هذه الخصلة التي قادها النزالي ضد الفلسفة والفلاسفة ، أن دلت حل شيء فائما تدل حل أن الأمر لم يشهد مجال الجدال الفكري به دليل أن الفلسفة بقيت في المجتمع الإسلامي ، وتحت تدريس في جامعاته ومدارسه بعد النزالي ، ولم تزل تدريس حتى اليوم ، مما يعطينا انطباعا بأن المسلمين لم يتفقوا من الفكر الاجنبي موقف الرافض المعارض لتعلمه ، الحارب له بالماليب عارضة عن اتفاق المعارضة الفكرية ، وهذه هي روح الاسلام : حرية في الفكر ، تمثلا ونقاشا وتحليلا ، ومعاودة ومعارضة الحجة بالحجة ، فما يحمل من الأفكار خاصة الثبوت والدوام بقي في المجتمع وروى فيه . وما كان مهمل الصورة ، ضعيف البيان ، ذهب واندره ، وذلك سنة الله في خلقه فأما الزيد فيذهب بقاء ، أما ما يقع الناس فيمكث في الأرض .

### مراجع البحث

- ١ - النزالي : الفقه من الضلال - تليف الدكتور / عبد الحليم حمود
- ٢ - محمد البهي : الجانب الاثني من الفكر الإسلامي
- ٣ - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية
- ٤ - ألدو ريلو : الفلسفة اليونانية ، أصولها وأثرها - ترجمة الدكتور عبد الحليم حمود - إبيكرز كسري
- ٥ - أحمد أمين ، إرثي عجب حمود : قصة الفلسفة اليونانية
- ٦ - أحمد أمين : فجر الإسلام
- ٧ - حل ساني انتشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام





## المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة

أ. د. حامد طاهر

يُعتبر موضوع المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة من أهم الموضوعات التي تشغل أذهان الباحثين المعاصرين في علم المنهج *Méthodologie* بصفة خاصة ، والفلسفة المعاصرة بصفة عامة<sup>(١)</sup> . ومن الملاحظ أن بحث مثل هذا الموضوع ما زال نادراً للغاية ، إلا أن يمكن غائباً تماماً من اللغة العربية ، وذلك على الرغم من الحاجة الشديدة إلى بيانه وتأسيسه في أذهان طلاب العلم ، والباحثين على حد سواء ، نظراً لثاقه من أهمية بالغة في تحديد نظريتهم الصحيحة إلى الأمور ، وتوجيه أحكامهم العقلية عليها<sup>(٢)</sup> .

وهذهنا من هذا البحث أن نحاول بيان مفهوم كل من المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة في لغة مبسطة ، نستخدمه إلى حد كبير حل أمثلة مستمدة من واقع بيئة العربية والإسلامية .

وتشغل البداية في أننا عندما نقترح كتاباً ، أو نقراً بعداً يعالج مشكلة ما ، يكون من حقنا أن نتساءل : هل حقيقة هذه المشكلة تفرض نفسها على واقعنا ، وتشغل لنا عقلية في الفكر والسلوك ، أم أن المؤلف يتكلم بعرضها ، أو يغفل أهميتها ، أو يحاول أن يشغلنا بشيء لا وجود له ؟ ولا شك أن هذا التساؤل البسيط ، والأساسي في نفس الوقت حول بونية المشكلة المطروحة يدفعنا إلى ضرورة التفكير في وضع نوع من تصنيف المشكلات ، وبالتالي إعطاء كل منها قدرها من الأهمية ، قد يزداد أو ينقص تبعاً لمدى خطورتها . ومن المعروف أن هناك مشكلات مهمة ،

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

*Méthodologie vers une science de l'action, par groupe d'étude du C.N.O.F. Paris 1994.*

١- سبق أن كتبنا عن ذلك فعلاً بعنوان « المشكلات الحقيقية والزائفة في الفلسفة الإسلامية » ، انظر كتابنا : مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٨ . ونظر أيضاً كتابنا « حول مشكلات عقلية لدى الفكر كائناتنا : مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية » ، القاهرة ١٩٨٨ .

٢- الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث « دراسات عربية وإسلامية » ج ٩ ص ١٩٨ .

والغنى أكثر أهمية ، ومشكلات ملحة وأخرى أكثر إلحاحاً ، وأخيراً مشكلات حقيقية وأخرى زائفة ..

والمشكلة الحقيقية - في رأينا - هي التي تمثل عقبة تتوق ( الفعل الإنساني ) أو ( الفكر الإنساني ) عن الاستمرار في تقدمه الطبيعي . فالفعل الإنساني بدون عوائق يمكنه أن يسيطرته على الطبيعة ، ويحسن الاستفادة منها إلى أقصى ما يستطيع ، والفكر الإنساني بدون عوائق بإمكانه أن يحدث الاستجمام المطلوب للإنسان مع الطبيعة ، ومع الناس ، ومع الله . لكن ما يمنع كلاً من الفعل الإنساني والفكر الإنساني من مواصلة تقدمه الطبيعي نحو السيطرة ، والاستفادة ، والاستجمام - هو ما يمكن أن نطلق عليه عقبات ، أو عوائق ، أو مشكلات حقيقية .

وقد تكون المشكلة الحقيقية واضحة في معظم الأحيان ، ولكنها قد تختفي أحياناً فلا تدعو منها إلا أجزاء بسيطة ، فتوقع الناس في عدم تقديرها التقدير الصحيح . لذلك فإن المشكلة الحقيقية تحتاج إلى اكتشاف وتعرف وتعميد . وهنا قد يقع الإنسان في أخطاء الحس ، ف يرى مشكلة : ما ليس كذلك : وكما أن الحس قد يخضع أحياناً لغير الشيء على غير حقيقته ، فإن العقل قد يستخدم أيضاً فيصير أحكاماً لا تتفق مع قوانين الفكر من ناحية ، أو لا تنطبق على حقائقها في عالم الأشياء من ناحية أخرى .

ونبش من المستحيل أن نجد لهذا الخداع أو الانخداع أسباباً محدودة ، ترتبط بكل حالة على حدة . فلنحس - مثلاً - عندما نكتشف خيانة صديق ، أو زنتقة شخص كنا نعتبره صانعاً ، لا يكون هذا الاكتشاف - في واقع الأمر - إلا تصحيحاً لأخطائنا نحن . ومن المعروف أننا لا نشبه كثيراً أو جيداً لأحاسيسنا التي نبني عليها أحكامنا . وبرور الوقت ينتهي الخطأ الأول تحت أكوام مشراكمة من الاعتبارات ، والتجاوزات ، والشائعات أيضاً ، حتى تأتي اللحظة الحاسمة ، فتفاجأ بالحدث الرهيب !

إن « الصديق الخائن » هو في حقيقة الأمر شخص غائب ، ونعطينا أننا اعتبرناه صديقاً . و « الزنديق الصالح » ليس إلا شخصاً نجح في إقناعنا بعكس حقيقته . ول كلا الخائنين ، يظل العمل الهادئ ، واستخلاص النتائج من التجارب المكتسبة ، وعدم إغفال التفاصيل الدقيقة ذات الدلالات الهامة - عناصر أساسية كان من الممكن أن تسليح بها حتى نجو من فخ الفجأة الدهشة .

المشكلة الحقيقية إذن عقبة . والعقبة - كما هو واضح - تظهر في طريق السائر فتستعنه من السبيل أو تُصنّب عليه الزور . وكما أن هناك مشكلات محسوسة تبدأ من مصادقة حجر كبير في الطريق ، أو حجرة أمام السيارة ، فإن هناك مشكلات خفية مثل كيفية التأقلم مع المجتمع ، أو السلوك الفاضل في الحياة ، كما أن هناك مشكلات أكثر صفاً مثل كيفية الوصول إلى اليقين الكامل في مجال الإيمان ، أو الحصول على طمأنينة النفس وسط مطالب الحياة المتلاحقة .

لكن من الذين يحكم على مشكلة ما بأنها حقيقية ؟ هل هو صاحب المشكلة الذى يمتنى منها ، أم الباحث المتخصص فى بحثها ومحاولة إيجاد حل لها ، أم الفيلسوف الذى يتابع النظر كله من بعيد ؟

الواقع أن هؤلاء الثلاثة شركاء فى ذلك . فصاحب المشكلة هو الذى تنعكس عليه الآثار المباشرة للمشكلة . ومظاهر هذه الآثار هى مجال عمل الباحث المتخصص . أما الفيلسوف فهو الذى يمكنه بيان مدى أهمية هذه المشكلة بالنسبة لغيرها ، كما يمكنه تقدير آثارها غير المباشرة ، وقيمة الحلول المقترحة لها .

غير أن العصر الحديث ، الذى يمكن أن نطلق عليه بحق عصر الإعلام ، قد أصبح المجتمع فيه خاضعا لسيل وافر من المعلومات والإعلانات التى كان من المأمول أن تكون هادئة له فى التعرف على مشكلاته الحقيقية ، لكنها أصبحت — لكثرتها ، وشدة تشويشها — عينا ثقيلا عليه (٣) .

فكثيرا ماتقع (حادثة) فتتلقاها وسائل الإعلام المختلفة ( الصحافة ، الإذاعة ، التلفزيون ومشتقاتها ) لتصنع منها (ظاهرة) عامة ، يشغل بها الرأى العام ، لفترة تطول أو تقصر ، ويساهم فيها الشخصيون بأرائهم ، وتجري حولها استطلاعات الرأى ، وتثار بصدد المناقشات ، وتعد لها الندوات .. وواقع الحال أن تلك الحادثة لاتعدو أن تكون مجرد شيء عابر ، لا يؤثر فى مسيرة المجتمع ، ولا يعوق حركته .

ولعلنا نذكر منذ عدة سنوات تلك الحادثة الشنيعة التى أقدم فيها طالب مصرى على قتل والديه . وكل ما سبقته الإشارة إليه فى الفترة السابقة قد جرى بالنسبة لهذه الحادثة . وقد اشتغلت وسائل الإعلام حينئذ بعظم الجرم ، وراح المحللون النفسيون ، وعلماء الاجتماع ، وعلماء الدين ، ورجال الشرطة والقضاء يبدلون بأرائهم المختلفة حول هذه ( الظاهرة ) ودوافعها القلبية والبعيدة ، وآثارها على الفرد والمجتمع ، ويقترحون الحلول المختلفة لكيفية تجنبها .

وبينا كنت أتابع مثل غيرى من الناس أخبار هذه الحادثة ، استوقفتنى إحصائية وردت فى خير هامشى تماما ، تؤكد أن عدد قتلى السكك الحديدية يبلغ أسبوعيا ثلاثين شخصا . وهائى الرقم ، فأعدت قراءة الخبر ، وتأملت :

أليست هذه بالفعل مشكلة حقيقية ، لأنها تتعلق بعدد من الأحياء يتكرر سقوطهم أسبوعيا ، وتمثل خللا فى نظام يبنى تداركه ؟ أليس من الأولى أن تركز وسائل الإعلام — وهى شتيها جيدة — على تلك ( المشكلة ) أكثر من تركيزها على مشكلة الطالب — التى لاشك فى شاعتها هى الأخرى ؟

٣ — انظروا . جيهان رضى ، الأسس العلمية لنظريات الإعلام . ص ١١١ وما بعدها دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٧٨

إن هذين المشألين يبيضان بوضوح ما نقصد إليه من التمييز بين المشكلة الحقيقية والمشكلة الزائفة ، ومن أن الإعلام المعاصر قد يتدخل في العصر الحاضر لنشويش الرؤية والمقاييس معا . وسوف يقودنا هذا الوضع إلى ضرورة التأكيد على دور الفيلسوف في المجتمع الحديث ، حيث ينبغي عليه أن يصمد أمام حالات الإعلام الصاخبة ، لكي يتبين — بهدوء — حقيقة الأمر في المسألة . فإنه لا أمل في جمهور خاضع تماماً لوسائل الإعلام الحديثة ، وكذلك في متخصصين لا يرون أبعد من نطاق اهتمامهم .. إذن لم يبق إلا الفيلسوف القادر على الرؤية الشاملة ، والعميقة ، لكي يدق ناقوس الخطر ، وينبه هؤلاء وأولئك إلى ما يحدق بهم .

وقد تستغرق المشكلة الزائفة فترة أطول ، وتحتل من اهتمام الناس ، وحتى المتخصصين أحياناً مساحة أكبر مما قد تحظى به مشكلة حقيقية . وهنا يكن خطر آخر ، يتمثل في اعتبار طول المدة التي قد تستغرقها مشكلة زائفة دليلاً على اعتبارها مشكلة حقيقية ( ٤ ) .

وفي تاريخنا الفكري القديم مثال واضح على ذلك : فقد شاع في عهد الدولة العباسية القول بخلق القرآن ، على اعتبار أن هذا القول جزء من مشكلة الصفات الإلهية التي اختلفت المذاهب الكلامية حينئذ حولها . وكان من المتوقع أن يظل هذا القول ، وما يقابله .. في إطار المناقشات النظرية بين العلماء والمتخصصين ، ولا يتعدى حلقات الدرس والمناظرة . لكننا وجدناه يخرج من أروقة المساجد إلى ديوان الخلافة ، ويمتد إلى أجهزة الشرطة ، ويصبح أحد مشاغل الناس الرئيسية في مطلع القرن الثالث الهجري . فيستمر خلال حكم المأمون ( ١٩٨ — ٢١٨ هـ ) ، والمعتمد ( ٢١٨ — ٢٢٧ ) ثم لا يلبث أن يبدأ في عهد الواثق ( ٢٢٧ — ٢٣٢ ) ، وينحول إلى النقيض تماماً في عهد المتوكل ( ٢٣٢ — ٢٤٧ ) .

والشأن في حقيقة هذه المشكلة ( مشكلة خلق القرآن ) يجد أنها نموذج واضح للمشكلة الزائفة التي شغلت الرأي العام ، واستحوذت على اهتمام المتخصصين دون أن يكون لها سند واقعي . والواقعية التي نقصدها هنا تتمثل في إحساس الناس بهذه المشكلة كمعقبة تعوق بالفعل مسيرة فكركم ، أو تحد من انطلاقه .

وتتغذى المشكلة الزائفة على السطح نتيجة لعوامل كثيرة ، ويتدخل في دفعها إلى بؤرة الاهتمام أفراد أو جماعات ذات مصالح خاصة ، يكون من ههنا ( تمرير ) هذه المصالح تحت ستار من دخان تلك المشكلات . وهنا يقفز إلى الذهن التعبير الشائع « ذراً للرماد في العيون » ليجسد تماماً تلك الحالة التي نقصدها .

٤ — انظر :

ROUGIER, Les Pseudo- Problèmes, in « La Méthode dans Les Sciences Modernes » P. 287. Paris N.O.S.

إن الشخص الذي يسعى لتحقيق غرضه الخاص يحتاج في الغالب إلى موافقة الآخرين وإلا  
تُحبط غرضه . ولا كان مثل هذا الشخص لا يحظى بتلك الموافقة في كل الأحوال ، فإنه يلجأ  
إلى استخدام الحيلة ، وهي هنا عبارة عن شغل الآخرين بأمر مختلف تماماً عما يرمى إليه ( مثال  
لشعاع حريق لإخفاء سرقة ١ ) .

والمشكلة الزائفة تشوش نظام العقل ، وتعطل حركة الفكر فيه . فهي أولاً تحول اهتمامه إلى  
بحال غير حقيقي ، وثانياً تستهلك طاقته في البحث عن حل لمقعدة لا وجود لها ، ثم هي أخيراً  
تضطره إلى استخدام مناهج غير عقلية أو غير تجريبية . وهذه المناهج تعتمد في الغالب على الخيال  
بدل الملاحظة الدقيقة ، وتقوم على الأوهام والشائعات بدلاً من استقصاء الظواهر ، وتسبب  
تقاطر الاتفاق والاختلاف بينها .

وفي كل مجال من مجالات الحياة والفكر ، يمكننا أن نلتقي بأشكال هذه المشكلات الزائفة .  
ولا شك في أن تقدم العلم كان رهناً بموقفه الصارم منها ، ولذلك جاء انتشار المنهج التجريبي على  
حساب شيوع المشكلات الزائفة في المجتمعات الغربية . فقد أخرج هذا المنهج الباحثين من  
تأملاتهم الذاتية حول الأشياء إلى ضرورة مواجهتها بالملاحظات المتعددة ، وقضى على عشوائية  
الأحكام الفردية بالاحتكام إلى التجربة الواقعية ، لهذا رأينا العلوم التجريبية التي استخدمت  
هذا المنهج الحاسم تتقدم باستمرار ، وذلك بعد أن تأكدت مكانتها بجموعة متراكمة من الحقائق  
والسجلات ( ٢ ) .

أما العلوم الإنسانية ، والتي لا يصلح المنهج التجريبي لمعظم فروعها ، فإزالت متعثرة . وأحد  
الأسباب الرئيسية في ذلك أنها ما زالت تحتوي على الكثير من المشكلات الزائفة التي تبذل جهود  
الدارسين فيها ، وتعزل اهتمامهم عن بحث المسائل الحقيقية إلى دراسة مسائل ومشكلات وهمية  
أو زائفة .

نجد الباحث في هذه العلوم يختار موضوع بحثه مشكلة لا تمحل عقبة حقيقية ، ثم يأخذ في بناء  
هيكل عظمي حوفاً ، يتكون عادة من تجميع آراء متضاربة ، ومناقشات جدلية ، تزيد من  
صعوبتها في ذهنه . وبهذا يصدق عليه القول بأنه « هو الذي يصنع عقده ينشئه » وبالتالي فإنه  
لا يصل إلى نتيجة محددة ، يمكنها أن تُصيف جديداً أو يعتمد عليها فيما بعد ، بل على العكس ،  
كثيراً ما يُيوهم غيره من الباحثين أن يواصلوا السير على نفس الدرب الذي سلكه ( ٣ ) .

G. Bénézé, La Méthode expérimentale p.53. Paris 1954.

١ - هناك تشككة مصرية تعبر تماماً عن هذا الموقف . وسأعرضها هنا باللغة القصص مع أن غير بلغها من لغتها العامة  
يفقد الكثير من القائل : يقال إن رجلاً أصابه التعب فأسند رأسه على باب دكان مفتوح ، ومرتبه شخص فتوقع أنه ينظر  
فتح الدكان ليشرى شيئاً منها ، فاصطف وراعه ، وكلما مر شخص جاز به نفس الحاضر ، فوقف ، حتى طالت السنين . على

ولكل عصر مشكلاته الخاصة به ، والنابعة من ظروفه . صحيح أن بعض المشكلات تضرب بجزورها في الماضي ، وربما في الماضي السحيق ، ولكنها عندما تتفجر في عصر ما ، فإنها تستحق أن تنسب إلى ذلك العصر ، ويصبح على أهله أن يقوموا بتجديدها ، ومحاولة البحث عن حلول لها .

وليس من العسير وضع قائمة بالمشكلات المثارة في كل عصر ، أو على الأقل بأهم هذه المشكلات . وهنا مقياس يمكن أن نستعين به في هذا المجال . وهو أن « ما يصدق على الحاضر يمكن أن يصدق على الماضي » . ومعنى ذلك أننا إذا تمكنا من تصنيف مشكلات العصر الحاضر ، أمكننا أن نفهم — على أساس هذا التصنيف — مشكلات العصور السابقة ... ويلاحظ أنه على الرغم من أهمية مثل هذا التصنيف ، إلا أنه لم يتم حتى الآن — على النحو الفلسفي الذي تقصده .

ولنضرب لذلك مثالا واضحا : فالقرية المصرية كانت لها في الماضي مشكلات خاصة . لكننا لا نستطيع أن نقدر حجمها الحقيقي ، ولا خطورتها ، ولا تأثيرها على الناس ، لسبب بسيط هو أننا لم نرها ، ولم نحس بها ، وكل ما نعرفه إنما تلقيناه عن طريق السماع ( أو القراءة ) . أما مشكلاتها الحاضرة فهي أماننا ماثلة وملموسة . فإذا استطعنا أن نحدد أولاً ، ثم نستفها تبعاً لأهيتها أو خطورتها ثانياً . أمكننا بعد ذلك أن ( نتصور ) ما كانت عليه المشكلات السابقة في نفس القرية . وفي رأينا أن هذا المبدأ ينطبق على المدينة ، والمجتمع ، والعصر ، ويصلح بالتالي أساساً مهماً في مجال تفسير التاريخ الإسلامي ، الذي ما زالت بعض حلقاته مفقودة .

لكن هل توجد مقاييس معينة يمكن أن يستعان بها في اعتبار مشكلة ما أكثر أهمية من غيرها ؟ نعم فما تتطلبه حاجات الإنسان الأساسية يأتي في المقدمة . وهو يمثل — على الرغم من اختلاف الأسماء والأشكال والصيغ — في ثلاثة أشياء ، هي الطعام ، والملبس ، والسكن . ثم يأتي بعد ذلك كل ما يرتبط بهذه الحاجات الثلاث من ضرورات تتفاوت حاجتها للإنسان إليها قوة وضعفاً ، حتى تصل في النهاية إلى مستوى الكاليات .

وهنا تبرز ، مرة أخرى ، المشكلات الزائفة التي يتم في إطارها تصور الكاليات على أنها من الضرورات .

التهابة جاء شخص لسان الأخير : لم ولوف هذا الطائر ؟ فأجاب : لا أعرف بالضبط ، ولكن يبدو أنه شيء مهم ؟ فذهب إلى الشخص الأول وسأله : لماذا أنت واقف هكذا ؟ فقال : لقد تميت فأستد رأسي . فقال له : عليك أن تنصرف ، فإن هؤلاء جميعاً يشبهون وراثة على أمل أنك تستنظر شراء شيء مهم ؟ فظهر الرجل خلفه ، وعندما وجد الطائر قد رآه قال للسائل : هل تريد أن تتركه مكانه في القدير ؟

ومن أشد ما يحول اهتمام الإنسان من الإحساس بالمشكلة الحقيقية إلى المشكلة الزائفة : الميل إلى التظاهر. والتظاهر يعني بساطة إظهار ما ليس حقيقيا ، وإخفاء أو تجاهل ما هو حقيقى . والتظاهر أحد العيوب الرئيسة المتفشية في مجتمعات العالم الثالث . وهو يوجد لدى العامة كما يوجد لدى المتخصصين . فثلا على الرغم من انتشار الفقيرين الغالبية العظمى من هذه المجتمعات ، إلا أننا نجدها تنفق ببذخ على بعض المناسبات الإجتماعية إلى حد يُدْهِش بالفعل أهل البلاد المتقدمة والفنية . وحسبنا أن نشير هنا إلى ما ينفقه الناس على الأعراس وأيضا على المآتم في بلادنا ، ومقدار ما يتكبدونه من مزارم في مثل هذه المناسبات .

إن التظاهر الاجتماعي الذي يستنفذ أموالاً طائلة في بلدان العالم الثالث لا يقوم في الواقع على أسس حقيقية . ومن المؤكد أنه مرتبط بجهل متراكم ، وتقاليد سيئة ، ومع ذلك فإنها مازالت مهيمنة ، ثم هو في النهاية : تعبير غير منضبط عن مشاعر زائفة .

في الامثال العربية القديمة مثل جيد يقول ( ليست النائحة كالكلى ) وأصل هذا المثل أن أهل الميت كانوا يتأجرون امرأة متخصصة في العويل على الميت . وهذا منتهى الخداع في التعبير المستأجر عن الحزن . ومع ذلك فإن المثل يؤكد المعنى الذي نريد الوصول إليه : فهو يفرق بوضوح بين حزن الشكلى الحقيقي على فقد الابن أو البنت ، وبين الحزن الزائف لتلك النائحة المستأجرة !

وقد تكون علاقة المشكلة الزائفة بالمشكلة الحقيقية مثل علاقة النسخة المزيفة لنحفة فنية أصيلة أو قطعة نسيج حقيقية . فهي قد تشبهها إلى حد كبير من حيث الشكل ، وتبدو في الظاهر - أنها عتبة حقيقية ، تسترعى الاهتمام ، وتستحق البحث عن حل ، ولكنها في واقع الأمر ليست كذلك . والعبرة هنا بالنتائج فالمشكلة الزائفة قد تبدأ وتختفي دون أن يحس الناس إزائها بالقلق الذي ينتابهم من إحساسهم بالمشكلة الحقيقية .

وعسيرة المشكلة الحقيقية أنها لا تعمق فقط رأسياً ، وإنما تمتد كذلك أفقياً . وهي في أثناء امتدادها تشبك أو تتداخل مع غيرها من المشكلات الأخرى ، فتزداد الأمور تعقيدا ، وتصبح الحالة حينئذ أشبه بلغة الخيط التي تختلط خيوطها ، وتلتوى ، وتتعقد ، ويصير من الصعب تتبع خيط واحد منها . وأوضح مثال على ذلك ما نراه من تشابك بين مشكلات مثل : زيادة السكان ، والإسكان ، والإنتاج ، والتعليم ، والبطالة ، والتخدرات . فهذه مشكلات حقيقية . وكل منها متصل - إلى حد كبير - بالمشكلات الأخرى ، وليس من السهل - كما يتصور معظم الناس - أن نقوم بحل كل مشكلة منها على حدة . وإنما البداية تمكن في وضع أيدينا على المشكلة - الأم ، وتحديد ما تنفرع عنها أو اتصل بها من مشكلات : متى كان ذلك ؟ وكيف تطور ؟ ونقاط الالتقاء والتشابه ؟ كل ذلك قبل أن نقول : ما هو الحل ؟



ولاشك في أن حل المشكلة الحقيقية أمر صعب . فهي لا تنتهي بقرار يصدره فرد أو تتخذه حكومة . بل إنه يتم عن طريق إعداد جماعي شامل وطويل ، يشترك فيه أصحاب المشكلة أنفسهم مع القائمين على حلها . وأول ما يتطلبه هذا الإعداد هو الإحساس بمدة المشكلة بعد المعاناة منها ، والإرادة الصادقة في ضرورة التغلب عليها . وبالطبع فإن هذا الإحساس وتلك الإرادة لا يتكوفنان بين يوم وليلة . إنها يستلزمان وقتاً ، وتمهيداً ، وتنوعاً مستمرة ، فضلاً عن إخضاع المشكلة للملاحظة المستمرة ، وتسجيل كافة المعلومات عنها .

أما المشكلة الزائفة فحلها ، أو القضاء عليها ، أسهل بكثير والسبب أنها — في العصر الحاضر — أصبحت مرتبطة بوسائل الإعلام كما سيقت الإشارة إلى ذلك . و يكفي أن يصدر قرار يوقف الحديث عنها حتى تختفي من أذهان الناس . وإنما يحدث ذلك لأنها لم تكن — في واقع الأمور — عائقاً حقيقياً لهم ، وإنما كانت « مشغلة » أضاعوا فيها وقتهم ، وبددوا حولها أفكارهم لفترة من الوقت .

وتقوم ( اللغة ) بدور هام في تحديد المشكلات ، أو بالأحرى ، في مرحلة طرحها . فالمشكلة التي يتم طرحها جيداً يمكنها أن توجه العقل البشري بسهولة إلى امكانية حلها ، في حين أن المشكلة التي يساء عرضها ، وخاصة عن طريق اللغة ، تتطلب مزيداً من الجهد ، بل إنها قد تضلل المتخصصين أنفسهم ، فيضلّون في تعاريفها (٧) .

واللغة التي نقصدها هي اللغة التي تتميز بخاصيتين أساسيتين هما : الدقة ، والوضوح . وفي سبيل ذلك يمكننا أن نستعين بالأرقام ، والرسم البياني ، والمخرائط .. ومن المعروف أن هذه الوسائل تنزع إلى الاختصار ، لأن الإطناب هو غالباً طريق الزلل . وفيه يقلل الفكر ، وتنمى المشكلات . بل إن الأمور الواضحة قد تتعقد أحياناً وتتمض بكثرة الحديث حولها . وهنا لا بد أن نستفيد من نصيحة المنهج التجريبي الذي يوصي العلماء بالاقتصاد في استخدام اللغة ، بحيث يعبر كل لفظ عن معنى ، مع تجنب الغموض ، والبعد عن الحشو والتكرار .

ويمكن القول بأن المشكلات الزائفة ترتبط غالباً — ويمكن أن نقول : دائماً — بلغة فضفاضة ، تنزع إلى الاستطراد ، وتنسم بالغموض ، وتكثر من استخدام الألفاظ في غير دلالاتها الحقيقية .

٧ — يقول بولانز : « لا يتصور جيداً إلا ما قيل بوضوح » ، ويقول كورنيليال : « ليس العلم الجيد إلا لغة ليست جيداً » ، وانظر ترجمتنا للنقل جيرار بينيو « المشكلات المعاصرة لغة المنطق » مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة ٥٢ ، نوفمبر ١٩٨٣ .

والمشال على ذلك نجد صارخاً لدى أولئك الذين يكتسرون الحديث عن (أزمة الثقافة ، والتفاعل الثقافي ، والنزوح الثقافي ، والمستقبل الثقافي .. الخ) والدليل على ذلك أننا لو طلبنا من أحدهم أن يحدد لنا المشكلة في كلمات ، أو يفصح عن رأيه في عبارات لما استطاع . والسبب في رأينا بسيط للغاية . وهو أنه لا يتحدث عن مشكلة حقيقية ، تمثل عقبة في سبيل الفكر أو الفعل الإنساني .



## فلسفة التاريخ الاسلامى

### أ. د. عبد الحميد ابراهيم \*

١- في صفر الخير سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م)، يذكر الجبرتي (١) أن الناس فتحوا الجامع الأزهر، وشرعوا في تنظيفه وكنسه، ابتهاجا باليوم الذي أخذ الفرنسيون فيه يحملون عن مصر، وكان يوما مشهودا، وموسما وبهجة وعيدا، عمت المسلمين فيه السرور، ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات، ودقت البشائر، وقرت النواظر (٢).

٢- وكان الجبرتي قد ذكر من قبل أن الفرنسيين بعد مقتل كليبر، زاد ارتياهم في الأزهر الشريف، وشرعوا في حفر ما به من أماكن، بحجة التفتيش على السلاح، فافطر علماءه إلى اقتاله وتسمير أبوابه من كل الجهات (٣).

٣- إذن حين يفرح الناس بضمير الأزهر ويكنسونه، وحين يغمتمون بقتل الأزهر ويسمرونه، إن الأزهر ليس مجرد مكان للعبادة، بل هو رمز للروح المصرية، حالة آمالها وآلامها. هذا من ناحية.

٤- ومن الناحية الثانية فإن الأزهر الشريف لم يكن مجرد مكان يؤمه أهل القاهرة فقط، يتدارسون فيه مذاهب الفقه وعلوم الكلام، ويلتقون بطلابهم من أهل مصر، بل كان مناره تنبع إلى جميع المنطقة، وتتأثر حول صحنه أروقة للشامي والمغربي والسوداني والتكريتي، ويؤمه طلاب من جميع الجهات، ثم يعودون إلى مواطنهم في العراق والشام والمغرب وباكستان وجميع أرجاء آسيا وأفريقيا، يحملون رسالة الدين، ويتحمسون لمبادئ العقيدة.

\* أستاذ الأدب الحديث وعميد كلية الدراسات العربية بجامعة ليبيا.

١- هو عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧ هـ-١٧٥٤-١٨٢٢ م) ولد في القاهرة. وتعلم في الأزهر الشريف، وجعله تلميذا من كتبة الديوان وولى القضاء الخفيفة في عهد محمد علي.

٢- عجائب الآثار ٢/ ٦٨٦.

٣- المرجع السابق ٢/ ٢٢٦.

٥- نحن إذن أمام حقيقتين لا يستطيع أن يتجاهلها باحث للتاريخ العربي :

أ- روح الدين هو الذى يحرك المنطقة ، والدين هنا ليس شيئاً غديراً ، أو أفيونا للشعوب ، بل هو يمثل المقاومة والتحفظ ضد الدخيل ، و يدفع الجماهير إلى التضحية بكل شيء ، فإما الشهادة أو الانتصار .

ب- إن المنطقة تصدر عن روح واحدة ، وتخضع لتاريخ مشترك ، يصيب مصر مثلاً شيء ، فتتحرك جميع المنطقة ، وكأنها الجسد الواحد ممتداً في الحجاز واليمن و بغداد ودمشق و تونس .

ولعلنا نحتاج إلى شيء من التفصيل والتوثيق .

٦- بعثت الحملة الفرنسية الحس القومى في نفوس المصريين ، كما يلاحظ ذلك المؤرخ عبد الرحمن الرافعى في الجزء الأول من كتابه « تاريخ الحركة القومية » ، ولكن الملاحظ لهذا التاريخ في كتابات الرافعى أيضاً يجد أن هذا الحس القومى قد اختلط بحس دينى ، وأن العقيدة هي التي كانت وراء ثورات المصريين ضد الفرنسيين ثم الانجليز .

وهي حقيقة واضحة يقول عنها أحد الفرنسيين « كانت الدعوة إلى الثورة تختلط علناً بأذان المؤذنين ، يدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن صباح ومساءً ، فيبلغ تبيج النفوس أشده ، حتى تكفى حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القومى » (١) .

ومن هنا تحول الأزهر إلى قلعة للنضال إليه يلجأ المصريون ، ويدخله تتكون اللجان الشورية ، ومنه تنطلق الروح المشتعلة التي تلهب الفتيل في كل مكان . وهي حقيقة سجلتها وقائع الحملة الفرنسية والتي تقول « أما المعسكر العام للثوار بين مكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر ، ذلك المسجد الجميل الذي طارت شهرته في أنحاء الشرق وقد أقام الثائرون الثواريس على نوافذ الشوارع المفضية إليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة » (٢) .

إن الرافعى (٣) حين أراد أن يؤرخ للحركة القومية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ركز على دور الأزهر أثناء الحملة الفرنسية والحملات الانجليزية ، وثورة سنة ١٩١٩ ، إن الشار يخ للأزهر هنا هو تاريخ للحركة القومية التي اختلطت بالحس الدينى ، إنه يلخص كل ذلك فيقول « فالأزهر إذن كان مركز الثورة في أواخر القرن

١- تاريخ الحركة القومية ١ / ٢٧٥ .

٢- المرجع السابق ١ / ٢٨٢ .

٣- هو عبد الرحمن بن عبد اللطيف الرافعى (١٣٠٦ - ١٣٨٦ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٦ م) همام ، مولده ووفاته بالقاهرة ، من رجال الحزب النجدي ، الذي أسسه مصطفى كامل .

الثامن عشر، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام، فإن الأزهر خلال سنة ١٩١٩م كان في فترة من الزمن المعسكر العام للثورة القومية، التي قامت في مصر عقب انتهاء الحرب العالمية (الاولى) والتاريخ يعيد نفسه» (٧).

ومن هنا نجد الحس الديني يتوارى وراء كتابات الجبرتي، ويصبح هو المحرك لأحداث تاريخه، إن كتابه «عجائب الآثار» يشبه ملحمة للصراع بين الخير والشر، أو قل هو الصراع بين المسلمين الذين تحركهم النخوة الدينية، وبين الكفار الذين يسيئون إلى النخوة الدينية، وهنا نراه في كتابه ينتصر لقوة الخير ممثلة في علماء الدين، إنه ينهي أحداثاً سيئه بالترجمة للعلاء، وخاصة من استشهد بيد الفرنسيين، ويذكر مؤلفاتهم وتلاميذهم، ويذكر الحسارة الفادحة في فقدهم، ويترحم عليهم، ويدعوهم برضوان الله «ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري، قرأ على والده وتفقه وأغيب، ولم يزل ملازماً لدروسه حتى توفي والده فتصدر للتدريس في محله، واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار يلى ويقيد وينتفى على مذهبه، ويأتى إليه الفلاحون من جيزه يلاذه بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحهم، فبطنى بينهم، ويكتب لهم الفتاوى التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه، ويستمعون لقوله ويتثلون لأحكامه، وربما أتوه ببدايا ودراهم، واشتر ذكروه، وكان جسيا عظيم اللحية فصيح اللسان، ولم يزل على حاله حتى اتهم في فتنة الفرنسيين المتقدمة، ومات مع من قتل بيد الفرنسيين، ولم يعلم له قبر» (٨).

يبدأ المؤرخ الخنسي لطف الله بجحاف حديثه عن الحملة الفرنسية على مصر فيقول: «وقتها وردت الأخبار بدخول الفرنسية، جعل الله ديارهم دارسه، وغيبرهم من الأفرنج الأيالة، ديار مصر طهرها الله من الدنس فاستولوا عليها، ومدوا أيدي الكفر إليها، وأظهروا بها الفساد، وعاثوا وتسلطوا على من بها من المسلمين، ولائوا كل ذلك بفسر من الخداع، والكفر والخيل والأطماع» (٩).

ويضفي لطف الله بجحاف فيتحدث عن وقع الحملة الفرنسية على نفوس العرب، إنهم يحسون أنها تهديد لديار المسلمين، ويقوم في البلد الحرام - محمد المغربي الجليلاني، يدعو إلى الجهاد، ويجمع عليه المتطوعة، ويلقى إليه الرجال والنساء بالأموال ويخرج في

٧- المرجع السابق ١/ ٢٧٦.

٨- تاريخ لشركة القومية ٢/ ٢٧٧.

٩- نصيوس بينه ص ٨٧.

أكثر من أربعة آلاف نحو صعيد مصر، و يلتقى بالكفرة، حتى يستشهد في سبيل الله، ويدفن في أرض مصر، رمزا لتلك الروح الواحدة التي تشرى في أرجاء المنطقة.

والقصة نفسها تتكرر عند الجيرتي، إنه يرصد تلك الروح التي شاعت في المنطقة ضد الحملة الفرنسية، ويتحدث أيضا عن هذا المجاهد و يسميه الكيلاني، و يذكر أنه مغربي الأصل، كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، وسافر إلى الصعيد مجاهدا في سبيل الله يقاتل الفرنسيين الكفرة (١٠).

و يتحدث الجيرتي أيضا عن مغربي آخر، ادعى المهدي، وحث الناس على الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة الفرنسيين، فاجتمع عليه أهل البحيرة، وحضروا إلى دمنهور، وقتلوا من بها من الفرنسيين (١١).

٨- وتأتي قصة « سليمان الحلبي » فتعكس هذا الروح العام الذي يسرى في كل المنطقة، إنه أصلا من الشام ومن حلب بالذات، كان طالب علم في الأزهر تلقى علوما من مشايخ ينتمون بحكم الولادة إلى أماكن متعددة، منهم الغزي وغيره، ولكن هذا لا يهم، فالجميع مجاورون، وفي صحن الأزهر وتحت أعمدته تختفى الجنسيات، فقط هناك عقدة واحدة ينتمون إليها، المصري والمغربي والغزي في ذلك سواء، تعلم الحلبي داخل الأزهر أن الجهاد فرقة، ورتل آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى الاستشهاد، فترى بعض بكليبر قائد الحملة الفرنسية، وقتله تقريبا إلى الله.

دار معه في قاعة المحكمة الحوار الآتي :-

« سئل عن ملته فجاوب أنه من ملة محمد، وأنه كان سابقا سكن ثلاث سنين في مصر، وثلاث سنين أخرى في مكة والمدينة.

وسئل عن معارفه في مدينة مصر، فجاوب أنه لم يعرف أحدا، وأكثر قعاده في الجامع الأزهر، وجملة ناس تعرفه وأكثرهم يشهدون في مشيه الطيب (١٢).

ارتاب الفرنسيون في الأزهر وأدركوا المحرك الأساسي وراء ظواهر الأحداث، وأخذ ينتشون عن العلماء، واعتقلوا الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ أحمد العريش قاضي مصر، وحجزوهما حتى منتصف الليل.

١٠- ساطع: عجائب الآثار ٢ / ٢٥٠.

١١- ساطع: المرجع السابق ٢ / ٢٧٤.

١٢- عجائب الآثار ٢ / ٣٦٢.

وانتهت المحاكمة بإعدام سليمان الحلبي على الخازوق ، وقطع رهوس ثلاثة من مشايخه في الأزهر، ينتمون إلى إقليم غزة ، وهم محمد الفزى وعبدالله الفزى وأحمد الفزى .

٩ - أطلق الأزهر بعد تلك الحادثة ، وساد الذعر في المدينة ، وهاجر كثير من العلماء والأعيان إلى الأقاليم ، وتبعهم الجماهير الخفية ، حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة ، إلى إصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم ، وانذرت حتى لمن يرجع بعد خمسة عشر يوماً تب داره .

و يعلق الراقص على ذلك فيقول « وانتقضت تلك الأيام الثلاثة والفزع عظيم على القاهرة ، والناس تعثر بهم الدهشة من تعاقب الحوادث الرهيبة على المدينة العظيمة التي ظلت السنين الطوال قبل الحملة الفرنسية غارقة في بجة الهدوء والسكون » (١٣) .

١٠ - وتترتب حقيقة ثلاثة عقب الحقيقتين السابقتين ، فقد ظهرت في التاريخ العربي فئة ، كانوا يسمونها قديماً « أهل الحل والعقد » وكانوا يسمونها خلال القرن التاسع عشر الميلادي « الفئة المستنيرة » .

١١ - ويخيل لى أن هناك فئات ثلاثاً داخل التاريخ العربي : العامة ، أهل الحل والعقد ، الحاكم .

١٢ - ولابد من الضغط على كلمة « فئات » دون طبقات ، فالواقع أن تلك الفئات الثلاث بعيدة عن معنى الطبقة بالمفهوم المعاصر ، التي تقوم على فكرة المصالح المادية وعلى التناقض الطبقي والذي يحل عن طريق الصراع .

إن هذه الفئات الثلاث تخضع لعقيدة دينية ، والكل مهياً لاداء دوره الذي يسره ، إنها مجرد أدوار أو وظائف في ظل الصورة العامة ، وليست هناك حواجز طبقية ، فمن السهل للغاية أن ينتقل الفرد من فئة إلى فئة ، وأن تتغير وظيفته تبعاً لدوره الجديد ، فمن السهل أن يتحول رجل من العامة إلى عالم مسموع الكلمة من الجانبين ، ومن السهل أيضاً أن يتحول إلى حاكم ولو كان أعجمياً ، فليس هناك تفضيل بين الشعوب والقبائل إلا بالقوى .

١٣ - وحين تعمل هذه الفئات الثلاث في انسجام تام ينتج الازدهار . ولكن قد يحدث انحراف بصورة ما فينتج الانحطاط .

والانحراف قد يتم بأن تخسب فئة أهل الحل والعقد ، وتمنع من أن تمارس دورها ، كما حدث من محمد علي حين نفى عمر مكرم وأسقط هيبة العلماء .



وقد يتم الانحراف من فئة أهل الحل والعقد نفسها ، فتدلس دورها وتصبح أداة في يد الطبقة الحاكمة ، وتقوم بتخدير العامة ، وصرفهم عما في جوهر الدين من حرية وعدالة ومساواة .

وقد حدث هذا في مراحل كثيرة من التاريخ العربي .

١٤ - وربما كانت هذه الأنظومة الثلاثية ( عامة ، علماء ، حكام ) ، والمستمدة من واقع التجربة التاريخية ، هي أصلح الأنظمة ، لأنها تقوم على مفهوم وسطى ، بين العامة من ناحية ، والمستبد العادل - وليس حتماً أن يكون عادلاً - من الناحية المقابلة .

وعليه الأهمية في العالم العربي ، وانشغال العامة بضروريات الحياة ، وقوة الأجهزة الاعلامية التي تقوم بتغليب الوعي ، وسلطة الاعلان التي تعمل على تزييف الوعي - كل هذا وغيره يؤكد صلاحية هذه الأنظومة ، ويبرز حتمية وجود فئة مستتيرة بين العامة والحاكم ، تتخلص من المشكلات اليومية ، وتنفرد لتوظيفها ، وتقوم بدور التوعية لكلا الطرفين ، وتساعد على الوصول إلى القرار الصحيح .

١٥ - ولكن لا يبد من الاجتهاد في مفهوم معنى « أهل الحل والعقد » بحيث يتغير هذا المفهوم بتغير ظروف العصر والبيئة .

فقد يفسر الناس أن فئة الحل والعقد هم العلماء المتفقهون في العلوم الدينية والشرعية والعربية .

وقد وقع كثير من الحركات الاصلاحية ، والتي قامت منذ بداية العصر الحديث وحتى الآن ، في شرك هذا المعنى ، فانصرفت إلى علوم الدين ، وقامت على أكتاف المنصرمين بالعلوم الشرعية ، ولم تهتم بجانب ذلك بأهل الخبرة في المجالات الأخرى ، ولم تفتح على الانجازات الحضارية المعاصرة .

لا بد إذن أن يتسع مفهوم أهل الحل والعقد ، فيشمل أيضا علماء التكنولوجيا ، وأهل الخبرة في مجالات العلوم المختلفة ، طبيعه وذرة وسياسة واقتصاد واجتماع ونفس ، وغير ذلك ممن تقوم عليهم دعائم الحضارة المعاصرة .

على أن تكون وظيفتهم أكبر من وظيفة المستشارين ، أنهم في النهاية هم أصحاب القرار وصانعو الحاكم هو المبلغ عنهم لفئة العامة ، والنائب عنهم في التنفيذ .

١٦ - وقد ظلت هذه الأنظومة الثلاثية ، مره في صورتها الصحية ، وأخرى في صورتها المنحرفة ، تعمل إلى أن حلت محلها ما يسمونه مجالس الشورى أو المجالس النيابية أو مجلس الشعب . وهي مجالس مستمدة من الديمقراطية الغربية ، منذ أن فكر إسماعيل باشا أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

إن هذه المجالس تغلب فئة العامة ، أو الشعب ، أو الجماهير ، أو الطبقة السفلى ، أو الطبقة الدنيا أو طبقة العمال ، لقد أصبحت كلمه « طبقة » ، تتردد مع هذا المفهوم ، وأصبحت هذه الطبقة ، أو ينبنى أن تكون ، هي صانعة القرار ، في تقابل فئة العلماء وفئة الحكام .

ولكن ظلت هذه الأنظمة الغربية متعثرة في العالم العربي ، وتوقفت عن أن تؤدي دورها ، الذي أدته في العالم الأوربي ، وتحولت إلى مجرد شكلية للباهاة بالديمقراطية والمصرية .

١٧ - وربما كانت فئة « أهل الحل والعقد » في صورتها الصحية ، هي أقوى محور في الأنظمة الثلاثية ، إنها تستمد سلطتها من مصدر ديني ، فلا سلطة للشعب ، ولا سلطة للحاكم ، ولكن السلطة للدستور الديني .

فباسم الدين توجه فئة العامة وتدفعهم إلى واجباتهم ، وباسم الدين أيضا تراقب فئة الحكام ، وتمنع انحرافهم عن الأصول الرئيسية وتجتهد لهم في المسائل الفرعية .

١٨ - ولكن المؤرخين العرب - أو الكثير منهم - ركزوا على فئة الحكام دون بقية الفئات ، فأخذوا يستعرضون إنجازاتهم ، وينسبون المصير إليهم ، فهذا عصر معاوية ، أو عبد الملك بن مروان ، أو هارون الرشيد ، أو المأمون ، أو الحاكم بأمر الله ، أو صلاح الدين الأيوبي ، أو بيبرس ، أو محمد علي .

ومن هنا تغير مفهوم الازدهار والانحطاط عند هؤلاء المؤرخين ، فعصر الازدهار هو العصر الذي يحقق فيه الحاكم إنجازاته العسكرية أو السياسية أو الشخصية ، أو حتى العلمية التي تتم بتوجيه منه .

أما عصر الانحطاط ، فهو العصر الذي لا يحقق فيه الحاكم أو نائبه شيئا ، وكل ذلك بغض النظر عن الاقتضاب أو الاعتماد من الأنظمة الثلاثية ، ومن أهم محور فيها ، فلم تعد حركات العامة يؤبه لها ، ولم تعد إنجازات أهل الحل والعقد ذات بال يذكر ، أو ربما يذكر عرضا خلال الحديث عن عظمة الحاكم وفتحه وسعة صدره .

١٩ - سبق أن ذكرت ( رقم / ١٣ ) أن عصر الازدهار - بمفهومه الصحيح - هو الذي يحقق فيه الانسجام بين الفئات الثلاث . وأن عصر الانحطاط هو الذي يحدث فيه انحراف في تشكيل الأنظمة ، وخاصة في فئة « أهل الحل والعقد » .

وأضيف الآن أن عصر الانحطاط لا يعنى التشكيك في الأنظمة ، ولكن يعنى توقفها إلى حين ، تنزف الظروف لكي تبرز من جديد ، إنها تظل كامنة كما يقول المناطقة .

إن الأنظومة (أو النظرية) لاتموت على أى حال ، إنها موجودة دائما . وقد يتحقق هذا الوجود بالفعل فيحدث ما يسمى عصر الازدهار ، وقد يكون هذا الوجود بالقوة فيحدث ما يسمى عصر الانحطاط .

إن الأنظومة تظل حتى في عصر الانحطاط كامنة في بطون الكتب ، وفي أروقة المساجد ، وفي أدمغة العلماء ، وفي أفئدة العامة .

إنها تترقب ، وتنتحين الفرص ، لكي تبرز وتطل برأسها من جديد .

٢٠- إن خلاصة معنى الازدهار ينطلق تلك الأنظومة ، هو حدوث الانسجام العام بين الفئات الشلات ، والتأكيد على دور العلماء ، ثم تحقيق كل ذلك في واقع فعلى ، يشمل شتى ظواهر المجتمع ، ما يجرى فوق السطح وما يجرى تحته ، دون التركيز عما يجرى فوق السطح فقط ( فئة الحكام ) من مباهاة شخصية ، أو استعراضات شكلية .

**وخلاصة معنى الانحطاط :**

هو أن يتوقف هذا الانسجام ، وأن تكف الأنظومة عن العطاء ، ولكنها لاتموت بل تظل كامنة تترقب .

٢١- سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، وقال المؤرخون إن العالم العربي قد دخل في مرحلة الانحطاط ، وإن هذه المرحلة قد امتدت إلى مايزيد عن خمسة قرون ، حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م وقالوا : حينئذ بدأ عصر النهضة ، أو البعث ، أو العصر الحديث . ولكن لم يمض على سقوط بغداد خمسة أعوام ، إلا وولد ابن تيمية سنة ٦٦١هـ (١٢٦٢) ودعا إلى الجهاد والاجتهاد .

ولم تخمد دعوته ، حملها تلاميذه من بعده وخاصة ابن الجوزية ، وظلت السلسلة متصلة الخلفات ، وقامت على أساسها الحركات الإصلاحية والدينية المعاصرة ، بدءا من الوهابية والشوكاني ، ومرورا بالسنوسية والمهديّة ومحمد عبده .

إن النظرية لم تمت طيلة تلك القرون الطويلة ، بل ظلت تعمل مع سقوط بغداد وعقبه ، ومنت ابن تيمية وبعده ، وأخذت تتشكل في شخصيات وحركات وإصلاحات ، وتنتحين الفرصة لكي تبرز من جديد ، وتصبح حقيقة واقعية ، ومحقة في مختلف ظواهر المجتمع ، فوق السطح وتحته ، كما تحققت من قبل ، وأوجدت ما يسمى بعصر الازدهار الحقيقي .

وإن مجرى الحملة الفرنسية إلى مصر لا يسمى نهضة أو بعثا أو عصرا حديثا ، إن النهضة ، أو بدايتها إن أردنا الدقة ، يجب أن نلتمسها في ثورات العامة ضد تلك الحملة ، وفي حركات المقاومة

من فئة العلماء ، وفي دور الأزهري الشريف ، وفي الروح العامة التي شاعت في المنطقة ، والتي استنفرت فرضة الجهاد المقدس ، ثم في الحركات الدينية والاصلاحية .

والتي قامت على أساس من ابن تيمية ، ودعوته إلى الجهاد والاجتهاد ، والتي امتدت في سلسلة متصلة الحلقات ، قبل الخيمة الفرنسية وأثناءها وبعدها .

٢٢ - لم يتفطن محمد علي لكل هذه الحقائق ، فجاءت اصلاحاته ظاهرية ، تعبر عن مجد شخصي ، وعن طموحات عسكرية .

يقول المؤرخون إن عصر محمد علي هو ازدهار ، فقد أقام امبراطورية مصرية ، وجعل القاهرة تنافس الأستانة ، وأنشأ جيشاً قوياً ، وأسطولا عظيماً ، وشق القنوات والنزع ، وأقام القناطر والجسور ، وقام بعدة غزوات في الشام والسودان والحجاز والمورة ، وجعل من مصر امبراطورية ينشأها العالم الأوربي .

ولكن منطق النظرية يقول عكس ذلك ، ويرى عصره عصر انحطاط ، فقد عمل في مسار مخالف للنظرية ، أضاع هبة العلماء ، حارب الوهابية ، أوجد بدور ثنائية التعليم .

وحين دفن دفنت معه امبراطوريته للأبد .

٢٣ - وتنفطن لكل هذه الحقائق رجل مثل الأفغاني ، هو لم يكن امبراطورية ، ولم يتم بغزوات ، ولكنه دعا إلى الإصلاح ، ومقاومة التيارات الدخيل المتمثل في الاستعمار .

يقول المؤرخون : في عصر الأفغاني كان الاستعمار يتعمق على المنطقة ، ولم يصلح معه جهود الأفغاني ، ثم يقولون : وانتهى الأفغاني واستطاع السلطان عبد الحميد أن يحبس في قفص من ذهب .

ولكن منطق النظرية يقول عكس ذلك تماماً ، ويرى أن الأفغاني قد وضع بدور ازدهار حقيقية وإن دعوته قد تلقفتها سلسلة من تلاميذه : محمد عبد ، رشيد رضا ، سعد زغلول .. الخ .

إنه لم يمت بل لا يزال حياً في السلسلة الخالدة .



### صعوبات أسلوبية في كتاب سيبويه

#### أ. د. عبد الرحمن أيوب \*

كان سيبويه في كتابه يواجه صعوبتين أساسيتين أولاها أن اللغة العربية لم تكن قد بلغت بعد المرحلة التي يمكن أن تعتبر فيها « لغة علم » وثانيها أنه كان أجنبيا اكتسب العربية بالتعلم . ومن ثم فقد كان يأتي في أسلوبه العام وتعبيراته الخاصة أحيانا بما يأتي به الأجنبي— حين يكتب بالعربية من لف ودوران أو يلجؤه إلى تركيب أسلوبى ليس مألوفاً للقارئ العربى . وسنحاول هنا أن نلقى الضوء على هاتين الصعوبتين من خلال النظر إلى عدد من النصوص التي اخترناها من كتابه ذاكرين أمثلة لهذا النوع أو ذلك من الصعوبات التي كانت تعترضه .

#### لغة الأدب ولغة العلم

ليس شمة من شك أن اللغة العربية في عهد سيبويه بل وقبلة بقرون قد بلغت درجة من التطور— جعلتها لغة « أدبية » بكل ما في هذا الوصف من معنى . والتعبير الأدبى بطبيعته يتميز بعدد من الأمور منها :

- ١ — الإيجاءات وظلال المعانى
- ٢ — قصد المعانى البعيدة دون المعانى المباشرة كما في التورية والمدح بما يشبه الذم أو الذم بما يشبه المدح والتعريض والكناية والتلميح
- ٣ — القصد إلى التعرف اللفظى كالجناس أو المعنوى كالمقابلة والتضاد
- ٤ — قبول الخشوع الدلالى كالجمل المعترضة

\* — استاذ علم اللغة ووكيل كلية دار العلوم الأسبق .

٥ - الشذوذ عن المعنى المقصود كالنسيب في أوائل قصائد المدح ، وحسن التلخيص وغير ذلك ، هذه الافتتاحيات الفنية ترفضها لغة العلم ، كما ترفض أن تقبل كثيراً من الامكانيات التركيبية التي تتيحها اللغة العربية للتعبير عن معنى واحد ومن ذلك :

— عدم تطابق الموقع والموضع . ونحن نعني بالموقع الموقع الإعرابي كالفاعلية أو المفعولية أو الخالية ونعني بالموضع المكان الذي تتخذ كلمة في موقع ما بالنسبة للكلمات التي تحتل مواقع أخرى في نفس الجملة . والعربية تحيز مثلاً

محمد قابل عليا في الدار	قابل محمد عليا في الدار
قابل عليا محمد في الدار	قابل عليا في الدار محمد
عليا محمد قابل في الدار	في الدار قابل محمد عليا
في الدار قابل عليا محمد	في الدار محمد قابل عليا

وهي جميعاً تعبر عن معنى واحد .

وقد يدعى البعض أن التقديم إنما يقصد لمعنى التأكيد والاهتمام وأن التأخير يقصد لمعناها وأنها بذلك من وسائل الدقة في التعبير التي تتطلبها لغة العلم . ونحن نقول بأن لغة العلم تقصد إلى الإخبار البسيط عن الواقع كما هو ، دون التورط الذاتي من جانب المخبر باهتمامه بهذا أو تأكيد ذلك .

تنصرف لغة العلم كذلك عن ظاهرة تعدد التراكيب الصرفية لنوع واحد من أنواع الكلمة . والعربية مليئة بهذا النوع من التعدد الذي أكسبها ولا شك ثراء أدبياً . ومن ذلك :

— صيغة البناء للمجهول « قُيل » إلى جانب صيغة المطاوعة « انفعَل » ونحن لا نرى فرقاً ذا بال بين « كسر الفصن » و « انكسر الفصن » رغم ما يفتعله النحاة من دلالات جانبية للتفريق بينهما

— التعبير باسم الفاعل عما يعبر عنه المضارع في مثل « محمد ضارب » و « محمد يضرب » . ولغة العلم المثالية تتطلب عدم تدخّل الوظيفة التعبيرية لصيغة ما والوظائف التعبيرية لأخرى .

— يعبر فيها عن الحال والصفة بالمفرد المشتق أو بالجملة فتقول « جاء محمد راكباً » « وجاء محمد وهو راكب » « ورأيت رجلاً راكباً » « ورأيت رجلاً يركب » ، دون فرق معنوي ذي بال بين هذه وتلك . وهناك غير ذلك الكثير من التراكيب اللفظية والأسلوبية ، ومن الدلالات الجانبية أو العكسية . ولكن أخطر ما يعوق اللغة عن أن تكون لغة علم هو تعدد معاني اللفظ الواحد ، وهو عيب تنخلص منه لغة العلم باستعمال ما يسمى بالمصطلحات ، وهي ألفاظ تتعين مفهوماتها بالتعريف أو بالوصف .

هذا وليس في العالم لغة واحدة يمكن أن تعتبر لغة علمية بهذا المعنى الدقيق . والمسألة نسبية فمن اللغات ما يقل التعقيد في قواعدها من جهة يعنيها كالأجليزية إذا ما قورن تصريف أفعالها بتصريف الأفعال في العربية أو الفرنسية . ومنها ما قد تكون أكثر من سواها تحديداً لمعنى من المعانئ كالأجليزية التي تفرق بين الوطواط والقاروتسمى الأول وتسمى الثاني بيتاً تطلق اللسانية عليها كلمة « أي فأر ، وتميز إحداهما عن الآخر بالصفة وهكذا .

هذا وقد انتطاعت العربية في العصر الحديث لضرورات التعبير العلمي . وأصبح الأسلوب العلمي العربي خالياً من الخشوع والإطالة والزينة اللفظية والمعنوية ، وهذا تطور جديد لم تكن العربية قد وصلت إليه على عصر سيبويه . وهذا لا يعني أن العربية لم تستعمل في التأليف قبل سيبويه . ولكن ما ألفت في هذا الحين كان من نوع الرواية التي تعتمد على سرد الخبر أو نقل النص أو ذكر الأحكام ، ولم تكن لغة تحليل علمي بالمعنى الذي نفهمه اليوم . ويعتبر كتاب سيبويه في نظرنا أول كتاب حاول التحليل العلمي في مجاله الخاص .

وستعالج الآن نصوصاً من كتاب سيبويه محاولين توضيح ما ادعينا في صدر هذا المقال .

#### التبويب والعناوين

يبدأ العمل العلمي بجمع طائفة من الحقائق التي تمثل جزئيات لموضوع ما . هذه الجزئيات تنقسم إلى أنواع طبقاً لصفات مشتركة بينها . و يقسم المؤلف عمله العلمي إلى مجموعة من الأبواب يتحدث في كل باب منها عن نوع معين من الأنواع المذكورة . و يضع لكل باب عنواناً ، يفترض أن يكون نصاً مركزاً يفهم منه بالاصطلاح مضمون الباب .

والأبواب والعناوين بهذا المعنى لم تكن تقليداً من تقاليد العربية في عصر سيبويه . وإلى

القارئ طائفة من عناوين سيبويه .

جـ ١ ص ٧ « هذا باب المستند والمستند إليه » هذا عنوان جيد ، فهو مركز يعبر بدقة عن مضمون الباب ، وخاصة وأن سيبويه قد ذكر تعريفاً لكل من المستند والمستند إليه بعد العنوان مباشرة .

جـ ١ ص ٧ « هذا باب اللفظ للمعاني » هذا العنوان جيد من حيث الشكل فهو مركز مختصر وهولاً يتصل اتصالاً أسلوبياً بالنص ، إذ أن العبارة التي بعده هي « أعلم أن من كلامهم الخ » وهي عبارة تستقل تركيبياً عن العنوان . ولكن عيب هذا العنوان هو أنه لا يفهم شيئاً . وقد يكون السبب هو أنه قد استعمل اللام بمعنى غير مألوف في العربية قد يكون مألوفاً في لغة سيبويه الأصلية .

والمعروف أن الجار والمجرور إذا كان خبراً ولم يذكر متعلقه في الجملة فإن متعلقه يكون الكون المطلق ( أو الوجود ) .



وبهذا يكون معنى عبارة « اللفظ للمعاني » هو « اللفظ موجود للمعاني » . والذي يريد سيبويه كما يفهم من النص الذي بعد العنوان هو تعدد المعاني للفظ الواحد أو تعدد الالفاظ لمعنى واحد . وكان عليه أن يضع عنوانا ينص على هذا نصا صريحا .

جـ ص ١٣ هذا باب الفاعل الذى لم يتعد فعله إلى مفعوله ، والمفعول الذى لم يتعد اليه فعل فاعل ولا يتعدى فعله إلى مفعول آخر ، وما يعمل من أساء الفاعلين والمفعولين عمل الفعل الذى يتعدى إلى مفعول ، وما يعمل من المصادر ذلك العمل ، وما يجرى من الصفات التى لم تبلغ أن تكون فى القوة كأساء الفاعلين التى تجرى مجرى الفعل المتعدى إلى مفعول مجراها ، وما أجرى مجرى الفعل وليس مفعول يقوى قوته ، وما أجرى من الأساء التى ليست بأساء الفاعلين التى ذكرت لك ، ولا الصفات التى هى من لفظ أحداث الأساء و يكرن لأحداثها أمثلة لما مضى وما لم يضى ، وهى التى لم تبلغ أن تكون من القوة كأساء الفاعلين والمفعولين التى تريد بها ما تريد بالفعل المتعدى إلى مفعول مجراها ، وليست لها قوة أساء الفاعلين التى ذكرت لك ولا هذه الصفات كما أنه لا يقوى قوة الفعل ما أجرى مجراه وليس بفعل .

لو اقتصر العنوان على « باب الفاعل » وانفصل أسلوبا عن النص التالى له لكان عنوانا مثاليا ولكن الذى حدث أنه على وضعه فى الكتاب جزء لا يتفصل عن النص الذى بعده . ونلاحظ أن النص ذاته ليس من عناوين موضوعات متعددة وليس فيه أحكام تتعلق بهذا الموضوع أو ذاك . وبهذا فنحن نلنا أمام باب من أبواب كتابه ، بل إننا فى الحقيقة أمام فهرس تعدد من الأبواب سيذكرها فيما بعد . ووضع الفهارس من أهم مميزات العمل العلمى الحديث ، حيث توفر على القارئ وقتة الذى يضعه فى البحث عن نقطة يعينها هى موضوع اهتمامه . وسبويه هنا فى الواقع يبدأ بتأليفه علميا جديدا .

ولكن فهرس سيبويه هذا غير شامل لجميع الأنواع التى درسها فى كتابه أوفى أحد أجزاءه . ومن ثم فقد ضاعت الفائدة التى كانت ترجى منه وقد شمل هذا الفهرس الموضوعات التالية :

(١) الفاعل الذى لم يتعد فعله إلى مفعول ... الخ ص ١٤

(٢) ما يعمل من أساء الفاعلين والمفعولين عمل الفعل ... ص ٨٢

(٣) ما يعمل من المصادر ذلك العمل ص ٩٧

(٤) ما يعمل من الصفات ... ص ٩٩

(٥) ما أجرى مجرى الفعل ليس بفعل ... الخ

(٦) ما أجرى من الأساء التى ليست بأساء فاعلين

وهذان الموضوعان ( رقم ٥ ، ٦ ) لا يمكن لنا بالتحديد ذكر الصفحات التي عولجا فيها نظرا لعدم وضوح ما يقصد سيبويه بها : هل يقصد اسم الفعل أم هل يقصد الجمل التي يرى أنها تعمل عمل الفعل في مثل ( لله دره فارسا ) حيث يقول بأن « لله دره » هي التي نسبت « فارسا »

وقد استغرق الموضوع الأول ما يقارب ستين صفحة لأنه لم يقتصر على موضوع الفاعل الذي لم يتعد فعله إلى مفعول ، بل لقد فصل سيبويه وأطال وعالج موضوعات متعددة مثل ، الفعل الذي ينصب مفعولين ليس أصلها مبتدأ وخيرا والذي ينصب مفعولين أصلها مبتدأ وخبر والفعل الذي ينصب ثلاثة مفاعيل من أى النوعين ، والحال وظن وأخواتها والإخبار بالنكرة عن النكرة واستنثار الضمير في ليس .. الخ . وكل هذه موضوعات كان ينبغي أن تذكر في القهرس بالتفصيل .

وإذا كان القموض من عيوب عناوين سيبويه فإن هناك عيبا آخر فيها هو الطول . ولترجع بالقارئ إلى العنوان السابق « هذا باب الفاعل الذي لم يتعد فعله ... الخ » وستجد أن سبب طول هذا العنوان هو عدم استعمال المصطلح العلمي وذكر جميع الصفات والأحكام الخاصة بالفهوم الذي يتحدث عنه على سبيل الاستطراد لتوضيحه . لتأخذ هذا العنوان ولنضع طائفة من المصطلحات مكان عباراته هكذا :

لو وضعنا هذه المصطلحات محل العبارات المفسرة لها وحذفنا ما في العنوان من حشو لكان العنوان هكذا :

« هذا باب فاعل اللازم ونائب الفاعل الذي يأخذ فعله مفعولا واحدا وما يعمل عمل الفعل من أسماء الفاعل والمفعول والمصدر والصفات المشبهة بالأسماء التي ليست بأسماء فاعل أو مفعول وليست وصفا مشتقا » .

وسنجد أن سيبويه قد ارتكب محظورا أسلوبيا تنفر منه العربية هو الفصل الطويل بين الفعل ومفعوله المطلق

#### وقد حدث هذا في العبارة

« ما يجري من الصفات التي لم تبلغ أن تكون في القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التي تجري الفعل المتعدي إلى مفعول مجراها .

وفي العبارة « وما جرى من الأسماء التي ليست بأسماء الفاعلين التي ذكرت ولا الصفات التي هي من لفظ أحداث الأسماء ويكون لأحداثها أمثلة لما مضى وما لم يمض وهي التي لم تبلغ أن تكون في القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التي تريد بها ما يريد بالفعل المتعدي إلى مفعول مجراها .

وكان من الممكن أن يستعمل سيبويه المصطلح و يتجنب الاطالة ولكن عذره أن استعمال المصطلحات لم يكن بعد تقليدا اسلوبيا علميا عربيا . ومع هذا فقد كان من الممكن لسبويه ان يتجنب هذا العيب باعادة ترتيب عباراته هكذا .

« والصفات التي تجري مجرى أسماء الفاعلين والمفعولين في عملها عمل الفعل وليس لها قوتها » وما جرى من الأسماء مجرى أسماء الفاعلين والمفعولين في العمل عمل الفعل المتعدي وهذه الأسماء ليست أسماء الفاعلين أو المفعولين أو الصفات التي اخذت من لفظ احدث الاسماء ...  
البحر

في عبارة ولا « هذه الصفات » هذه الصفات معطوفة على أسماء الفاعلين وكان من الأنسب أن يعيد المضاف معها فيكون « وليس قوة اسماء الفاعلين ولا قوة هذه الصفات » .

جـ ١ ص ٢٠

( هذا باب ما يعمل فيه الفعل فينتصب وهو حال وقع فيه الفعل وليس بمفعول كالثوب في قولك « كسوت الثوب » وفي قولك « كسوت زيدا الثوب » و يكون معناه ثانيا كمعناه أولا إذا قلت « كسوت الثوب » وكمعناه إذا كان بمنزلة الفاعل اذا قلت « كسيت الثوب » . وذلك قولك « ضربت عبد الله قائما » وذهب زيد راكبا )

— في عنوان الباب نفس العيب الذي ذكرناه من قبل . وهو اتصاله بالنص .

— العيب الجدي الذي نلاحظه هو أن سيبويه وقد عقد الباب للحال « لم يمثل للحال بعد العنوان بل مثل لما ليس بحال » . والمثال الذي بعد القوس — أى بعد العنوان — هو مثال للمفعول في جملة كسوت الثوب وكسوت زيدا الثوب . أما مثالا للحال فقد جاء بعد ذلك بأربعة أسطر .

— كذلك لم يتحدث سيبويه في الباب صراحة عن أحكام الحال بل تحدث عن أحكام أنواع تخالف الحال . وهكذا أصبح على القارئ أن يستخلص أحكام الحال بفهم مخالفة من أحكام الأنواع التي ذكر أنها ليست بحال هكذا .

— المفعول قد يكون معرفة ومقتضى مخالفة الحال له ألا يكون الحال معرفة بل نكرة .

— إذا غيرنا ترتيب الكلمات في جملة ذات مفعولين ووضعنا المفعول الثاني مكان المفعول الاول ظل معنى المفعولية ثابتا له رغم تغير موضعه . وكذلك إذا حذفنا الفاعل وأخذت الكلمة التي وقعت مفعولا محله وبنى الفعل للمجهول فإن معنى المفعولية يظل ثابتا للكلمة . ومفهوم المخالفة أن الكلمة التي وقعت حالا لو أخذت موقع المفعول أو نائب الفاعل قائما لا تحتفظ بمعنى الحالية .

مثال المفعول «كسوت محمدا الثوب» و«كسوت الثوب محمدا»

«كسوت الثوب» و«كسى الثوب»

ومعنى المفعولية ثابت للثوب سواء كان مفعولا ثانيا أو مفعولا أول أو نائب فاعل .

ومثال الحال «أهديت محمدا الثوب جديدا» . «أهديت محمدا جديدا» «وأهدى جديد» . ولفظ «جديد» قد تغير معناه حين انتقل من الحالية إلى المفعولية أو إلى نيابة الفاعل . وهذا لا يحدث بالنسبة للمفعول .

قوله «لأن الثوب ليس بحال وقع فيها الفعل ولكن مفعول كالأول» خلل تنبى الإشارة إليه . ذلك أن هذه العبارة تشير إلى كلمة الثوب في مثالين ، واحد منها فقط يحتوى على مفعولين . وبالتالي فقد كان عليه أن يخص التعليل «لأن الثوب ليس بحال الخ» . بالمثال الثانى «كسوت زيدا الثوب» .

قوله «و يكون معناه ثانيا كمنهأ أولا إذا قلت كسوت الثوب وكمنهأ إذا كان بمنزلة الفاعل» صادقة ولا شك على المفعول ولكن تقييضا لا ينطبق على الحال إلا إذا تجرد عن الحالية وصار مفعولا . ولما كان الغرض من الحديث عن المفعول أن نستبطن بفهمه مخالفة أحكام الحال فإن هذه العبارة لا لزوم لها ، لأن الكلمة التى كانت حالا فى تركيب ثم صارت مفعولا فى تركيب آخر هى نفس الكلمة من الناحية القاموسية ، أما من الناحية التركيبية فهى نوع آخر وكلمة «جديد» التى ذكرت فى الأمثلة السابقة هى نفس الوحدة القاموسية فى «كسوت محمدا الثوب جديدا» وفى «كسوت محمدا جديدا» وفى «كسى جديد» ولكن نوعها النحوى يختلف من حال إلى مفعول إلى نائب فاعل . ولقد كان من الممكن أن يذكر سيبويه أحكام الحال بشكل مباشر دون إقحام المفعول وغير المفعول

قوله (فلو كان بمنزلة المفعول الذى يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ماجازى ذهب) وجاز أن تقول ضربت زيدا أباك وضربت زيدا القائم لا تريد بالأب ولا بالقائم الصفة ولا البدل

استعمل سيبويه عبارة بمنزلة الفاعل للإشارة إلى موقع نائب الفاعل أى أن هناك موقعا نحويا اسمه «الفاعل» وموقعا نحويا آخر اسمه «منزلة الفاعل» أو ما سماه النحاة المتأخرون باسم «نائب الفاعل» . هذا سليم ومقبول . ولكن الشيء الذى لا يقبل هو استعماله عبارة «بمنزلة المفعول» ليعنى بها موقع المفعول . ولنا ندرى لماذا يضع مصطلحين اثنين لمفهوم واحد وهما «المفعول» و«منزلة المفعول» وكان من حقه أن يكتفى بمصطلح «المفعول» فيقول (فلو كان مفعولا يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ماجازى ذهب) . وفى ذيل هذه العبارة عيوب :

أولها استعمال الفعل «ذهب» مع أن الصيغة التى استعملت فى أحد المثالين السابقتين

هى « ذهب » . وما دام سيبويه يشير إلى مثال يعينه فقد كان عليه استعمال الفعل بالصيغة التى ورد بها المثال . وبالتالى كان عليه أن يقول « ما جازى فى ذهب » .

وثانيها أن جدل سيبويه هنا لا ينصب على المثالين ، لأنه لو صح أن قلنا بأن قائما فى الجملة « خربت عبد الله قائما » تصلح مفعولا إذا حذف عبد الله وحلت محله ، فإننا لاستطيع أن نقول مثل هذا القول بالنسبة للجملة « ذهب زيد راكبا » لأن الفعل ذهب لا ينصب مفعولا ، وهذا فإن عدم إمكان كون « راكبا » مفعولا هنا يكون بالضرورة للزوم الفعل

ثالثها أن سيبويه لم يعبر صراحة عما يريد أن يقول بل لقد لجأ كذلك إلى ترك الأمر للقارىء ليفهم مراده بالاستنباط . وقد كان من الممكن له أن يضع القضية هذا الوضع . لو كان الحال من المفعولات لما جاز المثال ( ذهب زيد راكبا لأن ذهب فعل لازم لا ينصب المفعول )

قوله ( فالاسم الأول المفعول قد حال بينه وبين الفعل فى ذهب أن يكون فيه بمنزلة كما حال الفاعل بينه وبين الفعل فى ذهب أن يكون فاعلا )

فى الجزء الأول من هذه العبارة اسم ظاهر مفرد مذكر وبعده خمسة ضمائر مذكورة مفردة لاتعمد كلها عليه ، بل يعود بعضها كما يفهم من السياق إلى اسم الموصول « ما » الموجودة فى العنوان قبل هذا النص بسبعة أسطر . واستعمال هذا العدد من الضمائر مع بعد أحد العائدين يؤدى إلى صعوبة فى الفهم وإلى تعدد الاحتمالات التى يمكن أن تفهم عليها العبارة . هكذا

( ١ ) حال المفعول بين الحال وبين الفعل فى ذهب أن يكون الحال فى الفعل ( أى بالنسبة للفعل ) بمنزلة المفعول ( أى مفعولا ) .

( ٢ ) حال كون « الحال » بين المفعول وبين الفعل أن يكون المفعول من الفعل بمنزلة الحال . الخ

والاحتمال الأول هو ما يقصده سيبويه : ولو استعمل الأسماء الظاهرة مكان الضمائر لكانت عبارته واضحة يسيرة .

وما قلناه هنا يقال أيضا بالنسبة لبقية الاقتباس « كما حال الفاعل بينه وبين الفعل فى ذهب أن تكون فاعلا » فقد كان الأولى أن يستعمل الأسماء الظاهرة فتكون العبارة أكثر وضوحا هكذا « كما حال الفاعل بين المفعول وبين الفعل عن أن يكون المفعول فاعلا »

قوله « وكما حالت الأسماء المجزوءة بين ما بعدها وبين الجار فى قولك « لى مثله رجلا » « ولى ملؤه عسلا » . وكما منعت النون فى عشرين أن يكون ما بعدها جارا إذا قلت « له عشرون درهما »

نحن لانوافق على فكرة حيلولة كلمة فى موقع ما بين هذا الموقع وبين كلمة فى موقع آخر أن تقع فى الموقع الأول . وذلك لأنه لو جاز تغير الموقع لكان معنى هذا ، اختلاف التركيب اختلافا تاما . وعلى سبيل المثال فإن الجملة ، ذهب زيد راكبا « لانتحول إلى « ذهب راكبا » بسقوط زيد » إذ إن الجملة الثانية ليست نتيجة تغير فى الجملة الأولى ولكنها جملة أخرى تخالفها فى

التركيب وإن شابهتها في الألفاظ ، الأولى من فعل وفاعل معرفة وحال نكرة ، والثانية من فعل وفاعل نكرة . وبهذا المعنى لا يمكن المقارنة بينهما .

أما أن النون في « عشرون » قد تمتع الاسم الذي يليها عن أن يكون مجرورا ، فهذا مرفوض من أسامة . وذلك أن النون في « عشرون » جزء من الكلمة لا يسقط . ان المنع من الجر هو أن كلمة « عشرون » كلها لا تنضاف كما أن كلمة « هو » لا تنضاف فكما لا يصح أن يقال « هو عل » بالإنضافة فكذلك لا يمكن يقال « عشرون درهم » وإن يصح رأيه إلا إذا كان من الممكن أن تقول ( عشرو درهم )

قوله ( فعمل الفعل هذا فيا يكون حالا كعمل « لي مثله » فيا بعده . ألا ترى أنه لا يكون إلا نكرة كما أن هذا لا يكون إلا نكرة . ولو كان هذا الحال بمنزلة الثوب في كسوت لما جاز ذهب راكبا لأنه لا يتعدى إلى مفعول كثر يد وعمرو . وإنما جاز هذا لأنه حال وليس معناه كمعنى الثوب وز يد فعل كعمل غير الفعل ولم يكن أضعف منه إذ كان يتعدى إلى ما ذكرت من الأزمنة والمصادر ونحوه ) .

- ( أ ) ليس في هذا الجزء كله مفهوم جديد فكل ما قيل فيه مجرد تكرار لما قيل من قبل .
- ( ب ) اسم الإشارة « ههنا » يشير إلى باب الحال كله . ومن ثم فلا لزوم لاستعماله وكان يكفى أن يقول « فعمل الفعل فيا يكون حالا » . وذلك حتى لا يوهم استعمالها وجود طرقتين لعمل الفعل في الحال ، طرقة ههنا حيث يعمل عمل « لي مثله » وطريقة في مكان آخر حيث يعمل عملا آخر .
- ( ج ) من الأوضح استعمال الاسم الظاهر مكان الضمير هكذا « لما جاز ذهب راكبا » لأن الفعل ذهب لا يتعدى إلى المفعول .
- ( د ) عبارة ( فعمل كعمل غير الفعل ولم يكن أضعف منه ) فيا يدورها مشكلة استعمال الضمير بدلا من الاسم الظاهر . إنه يعني أن « الفعل اللازم » ذهب نصب الاسم ، « راكبا » مع أنه لا ينصب المفعول ، كما نصبت الجملة الاسمية « لله درهم » اللفظ « فارسا » على التمييز . وبالرغم من أن الفعل اللازم عمل عمل غير الفعل ، فإنه ليس أضعف من الفعل « السؤال » هنا هو كيف يكون الفعل اللازم أضعف من الفعل مع أنه فعل ، إن سيويوه يعني أن الفعل اللازم « ذهب » ليس أضعف من الفعل التمتع إلا في عدم نصبه المفعول ، لأنه ينصب ظرف الزمان والمفعول المطلق وسواهما . وقد كان عليه إن يذكر صراحة أن المقارنة بين الفعل اللازم والفعل التمتع دون إتمام الجملة الاسمية في هذا الجدل .

ولنا سؤال أخير: هل يعتبر سيبويه نصب الحال من عمل الفعل؟ الجواب بالإيجاب. ودليلنا عنوان الموضوع الذي هو «هذا باب لما يعمل فيه الفعل وهو الحال». كيف يقول إذن بأن «ذهب» حين نصب «راكبا» قد عمل عمل غير الفعل؟ أو لم ينصب الفعل المتعدي «ضربت» في مثاله «ضربت عبداً قائماً» الحال كما نصب الفعل اللازم «ذهب» الحال في المثال «ذهب زيد راكباً»؟

جد ٢ ص ٣١٥

(هذا باب ما لحقته الزوائد من غير الفعل)  
تلاحظ أن سيبويه كثيراً ما يستعمل أسلوب النفي لشرح مخالفته المثبت وهو يقصد هنا «هذا باب المزيد من الصفات والأسماء»  
والتعبير بأسلوب النفي هنا لا يوقع في مشكل. ولكنه كثيراً ما يسبب غموض العبارة كما ستري. يقول بعداً هذا في نفس الموضوع:

(ما قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به ولم يجيء إلا نظيره في غير بابه)  
ما هو هذا المعتل الذي لا يتكلمون به؟ ثم كيف يكون النظر من غير بابه؟ اللهم إلا أن يكون التناظر في أمر لم يبيته سيبويه.

قد يفسر مقصوده ما جاء في نهاية الباب (ولا نعلمه جاء صفة إلا حرف من لمعتل يوصف به الجماع) يعني الجموع وذلك قويم عدى، ولم يكسر على عدى واحد) هنا يعبر بأسلوب النفي كذلك ثم الاستثناء. وكان من الأبسط أن يستعمل صيغة الإيجاب هكذا «لم يجيء وصف معتل إلا ما يوصف به الجمع بمقتضى لفرده ولكن معناه كمعنى الجمع وذلك مثل عدى» وهي اسم جمع مثل «الركب» وفي نهاية عبارته تعبير آخر بأسلوب النفي هو «لم يكسر على عدى واحد» والصعوبة هنا أن «واحد» يحتل أن تكون صفة لعدي السابقة عليها أو نائب فاعل. وهو ما نظن أنه يقصده.

جد ١ ص ٣

إلا أنها ضارعت الفاعل لاجتماعها في المعنى وسترى ذلك في موضعه ولدخول اللام... الخ

هنا فصل بين المتعاطفين والأولى أن تعاد صيغة العبارة هكذا «إلا أنها ضارعت الفاعل لدخول اللام فيها ولا اجتماعها في المعنى وسترى ذلك في موضعه»

جد ١ ص ٥

(فلما كان حال يفعل في الواحد غير حال الاسم وفي التثنية لم يكن بمنزلة فجمعوا إعرابه في الرفع... الخ)

يقصد أن المضارع عند الإفراد والتثنية مخالف للاسم حيث أنه يتطلب فاعلاً وعلامة إعراب على العكس من الاسم الذي يتطلب علامة الإعراب دون فاعل. ومن هنا

لا يكون المضارع بمنزلة الاسم فتكون ألف التنثية علامة الإضمار والنون ثبوتاً أو عدماً علامة الإعراب . وبهذا التفسير تكون « وفي التنثية » عطفاً على « في الواحد » وتكون الفاء في « فاجعلوا » لإفادة الترتيب والتعقيب ولهذا فمن الأنسب أن تكون العبارة هكذا : « فلما كان حال بفعل في الواحد وفي التنثية غير حال الاسم لم يكن بمنزلة فاجعلوا... الخ »

ج ١ ص ٥

( وأعلم أنك إذا ثبتت الواحد لحقته ز يادتان الأولى منها حرف المد واللين وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منون تكون في الرفع ألفا ولم تكن واوا ليفصل بين التنثية والجمع الذي على حد التنثية وتكون في الجر ياء مفتوحاً ما قبلها ، ولم يكسر ليفصل بين التنثية والجمع الذي على حد التنثية . و يكون في النصب كذلك ولم يجعلوا النصب ألفا ليكون مثله في الجمع ، وكان مع هذا أن يكون تابعا لما الجر منه أولى لأن الجر للاسم لا يماوزه ، والرفع قد ينتقل إلى الفعل فهذا أغلب وأقوى . وتكون الزيادة الثانية نونا كأنها عوض لما منع من الحركة والتنوين وهي النون وحركتها الكسر )

العيب الأسلوبى الواضح في هذا النص الاستطراد بذكر أحكام قرعية لأطراف القضية التي يعرضها ، بحيث يكون من العسير الإلمام بالقضية نفسها . وسنحاول فيما يلي إعادة كتابة هذا النص مع ترتيب أجزائه بحيث تنفادى هذا الاستطراد وسيستطيع القارئ بعد هذا إدراك ما نقول « وأعلم أنك إذا ثبتت الواحد لحقته ز يادتان الأولى منها حرف الإعراب والثانية نون مكسورة . و يكون حرف الإعراب في الرفع ألفا وفي الجر ياء مفتوحاً ما قبلها و يكون في النصب كذلك ولم يكن حرف الإعراب في الرفع واوا حتى يفصل بين التنثية والجمع الذي على حد التنثية . ولم يكن في النصب ألفا حتى يكون مماثلاً للنصب في الجمع ( السالم ) وحتى يتناظر علامة الجر وسبب تفضيل هذا التناظر أن الجر خاص بالإسماء فهو أغلب وأقوى ..

قوله « وتكون الزيادة الثانية نونا .. وهي النون »

هذا تكرار لا لزوم له . وقد كان من الأسر أن يكون النص « وتكون الزيادة الثانية نونا مكسورة كأنها .. » كما أنه من الممكن أن يبقى التكرار مع إزالة العيب باستعمال اسم الإشارة هكذا « وتكون الزيادة الثانية نونا .... وهذه النون حركتها الكسرة » قوله « ولم يجعلوا النصب ألفا ليكون مثله في الجمع » التفسير في « مثله » يوهم أن يكون عائداً على الاسم المثنى لأن ضمير « النصب » مستتر في يكون اسماً لها والأفضل استعمال الاسم الظاهر هكذا « ليكون مثل النصب في الجمع »

قوله « الأولى منها حرف المد واللين وهو حرف الإعراب ... تكون في الرفع ألفا ولم تكن واوا .. وتكون في الجر ياء مفتوحة ولم تكسر ... »



الذى يكون ألفا في الرفع و ياء في النصب والجر هو حرف الإعراب لا الزيادة . وهذه الزيادة بهذا المعنى جنس يتدرج تحته نوعان ، زيادة الرفع وهى الألف وزيادة النصب والجر وهى الياء . وبهذا المعنى فإن من الأنسب استعمال « يكون » و « لم يكن » لأن المتغير هو الحرف لا الزيادة باعتبار دقيق . وعلى فرض قبول استعمال ضمير المؤنث في الفعلين فإننا تأخذ على سبويه استعمال ضمير المذكر « ولم يكسر » لأن هذه الضمائر تعود على أمر واحد .

قوله « وكان مع هذا أن يكون تابعا لما الجر منه أولى » .  
« مع هذا » فى عربيتنا المعاصرة قد تعنى « رغم هذا » . ولست أدري إذا ما كان هذا الاحتمال قائما فى العربية المعاصرة لسبويه والمقصود هنا « بالإضافة لهذا » . وهذا التعبير فى مجمله ( كان مع هذا أن يكون ) غير عربى . و يبدو أنه من تأثير لغة سبويه الأم .

ج ١ ص ٥  
( واعلم أن التثنية إذا لحقت الأفعال المضارعة علامة للفاعلين لحقتها الف ونون ) كان من الأفضل ألا يستعمل الفعل « لحق » مرتين لأن هذا يؤهم دخول لاحقتين التثنية والألف والنون . و يزد يد هذا الاحتمال وقوع لحقت فعلا للشرط ولحقها جوابا له . وفعل الشرط مختلف عن جوابه .

— قوله « علامة للفاعلين » « تعرب علامة » حالا من التثنية . والتثنية ليست علامة للفاعل ( أى ضميرا له ) وعلامة الفاعل هى الألف . ولهذا فالعبارة مختلفة وصوابها « واعلم أن الأفعال المضارعة تلحقها ألف ونون علامة للفاعلين .... »

ج ١ ص ١٩٧  
« هذا باب ما ينتصب فيه الاسم لأنه حال يقع فيه السعر وأن كنت لم تلفظ بفعل ولكنه حال يقع فيه السعر فينتصب كما انتصب لو كان حالا وقع فيه الفعل لأنه حال وقع فيه أمر ) .

استعمال الضمير « يقع » بالنسبة للفعل مقبول لتجده أما بالنسبة للسعر وهو غير متجدد فقد الأولى أن يستعمل كان التامة هكذا .

هذا باب ما ينتصب فيه الاسم وهو حال يكون فيه السعر ، ويدون تكرار لعبارة حال يقع فيه السعر

ج ١ ص ١٩٩  
( هذا باب ما ينتصب من الأسماء والصفات لأنها أحوال يقع فيها الأمور وذلك قولك هذا يسرا أطيب منه ربيا ... وإنما قال الناس هذا منصوب على انحصار « إذا كان » فيها

يستقبل و «إذا كان فيا مضى لان ذا لما كانت بمعنى ذا اشبه عندهم ان ينتصب على  
«إذا كان» و «اذ كان»

قوله «لان ذا لما كان معناه ذا اشبه عندهم... الخ». ترى هل بلغ سيبويه من  
السطحية بحيث يقرر ان «إذا» بمعنى «ذا»؟

لقد خانت سيبويه هنا عبارته وصح منطقة، وهو يقصد الإشارة بذا الاولى الى  
«إذا» والثانية الى «اذ» او بالعكس. وفي هذه الحالة كان ينبغي أن يقول لان «ذا»  
في «إذا» لما كان معناه «ذا» في «اذ».. الخ «أو» لان ذا لما كان معناه ذلك  
«... الخ» اما منطقة فأننا سنبينه رغم انه ليس من هدف هذا المقال.

يبدو لي أن سيبويه يرى اشتراك «إذا» في الاصل التاريخي «ان ذا» وان عنصر  
الشرط مستفاد من «ان» والإشارة من «ذا» وقد تطور هذا المركب اللفظي الى «إذا»  
بادغام النون في الذال وفقد التشديد الناتج من الاغام، وتطور الى «اذ» بهذه الطريقة  
مع فقدان الفتحة الطويلة الاخيرة ثم تخصصت إحدى الصورتين للشرط في الماضي  
والاخرى للمستقبل. وبالتالي فهناك شبه في الشرط أدى الى توهم انها أداة واحدة  
ذات معنيين (لاحظ قوله اشبه عندهم) وهذا التوهم يؤدي الى ظاهرة «حاكاة النظير»  
analogy وعكسها تماكي الجملة جملة «اذ» في المضى وتماكي «إذا» في  
الاستقبال.

اما الفرق بين سيبويه و «الناس» ، فأهم يقولون بنصب «بسا» باعتبارها خبرا لكان  
المحذوفة بتقدير «هذا اذا كان بسا أطيب» او «هذا اذ كان بسا أطيب» ويرفض سيبويه  
هذا التأويل لانه لو كان صالحا مع «بسا» النكرة فانه ينبغي ان يكون صالحا كذلك مع  
المعرفة «البسر» وذلك لصلحية خبر كان لان يكون معرفة اذا صلح نكرة. ولكن استعمال  
«البسر» لم يرد في هذا المثال مع النصب، وبالتالي فلا يصلح اعتبارها خبرا لكان واذا امتنع  
هذا امتنع نظيره وهو اعتبار النكرة خبرا لكان المحذوفة. والامكانية الباقية هي نصب «بسا»  
على الحالية وهي موقع يقتضى تنكير الاسم والخلاصة ان هناك رأيين:

(١) رأى «الناس» وهم يقولون بالنصب خبرا لكان المحذوفة

(٢) رأى سيبويه وهو يقول بالنصب على حكاية خبر كان او يكون، في المثالين «هذا أطيب اذا  
كان بسا منه اذا كان وطيا» في الاستقبال و «هذا أطيب اذ كان بسا منه اذ كان  
وطيا» في المضى وذلك بدون تقدير كان او يكون.

ج ١ ص ١٥٩

«هذا باب اختلاف العرب في تحريك الاخر لانه لا يستقيم هو والاول من غير اهل

الحجاز»

( ١ ) العيب هنا هو انفصال بين الصفة والموصوف فصلا طويلا والادق ان تكون العبارة هكذا  
« هذا باب اختلاف العرب من غير أهل الحجاز ... الخ »

ج ١ ص ٢٧٨  
( فالتبدأ الأول والمبنى ما بعده عليه ) الادق ان يقال « والمبنى عليه ما بعده »

ج ٢ ص ٣٣٥  
( تقول فعلول نحو يهلول قالباء تشرك الواو في هذا الموضع والالف في حلتيت وشملال الادق  
أن يقول « الواو والياء والالف تشرك في الوقع زائدة تفصل بين اللام الاولى والثانية في وزن  
فعلول وفعليل وفعلال . وذلك مثل يهلول وحلتيت وشملال » والعيب في عبارة سيبويه كما يلي  
قوله « الياء تشترك الواو » توهم جواز بديل الى جانب يهلول وهذا غير مقصود .  
قوله « والالف في حلتيت » توهم امكان حلتات الى جانب حلتيت وهذا غير مقصود .  
ولكن هذا اليبس ينعدم لو كانت العبارة قد صيغت على النحو الذي ذكرناه .

ج ٢ ص ٤٠٤  
( الا ان الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الايمن وان شئت تكلفتها من الجانب الايسر .  
وهو أخف لانها من حافة اللسان مطبقة لانك جمعت في الضاد تكلف الاطباق مع ازالته عن  
موضوعه وانما جاز هذا فيها لانك نحوها من اليسار الى الموضع الذي في اليمين . وهي أخف لانها  
من حافة اللسان وانما تحالط مخرج غيرها بعد خروجها فتستعيل حين تحالط حروف اللسان  
فسهل نحو يلها الى الايسر لانها تصير في حافة اللسان في الايسر الى مثل ما كانت عليه في الايمن  
ثم تسفل من الايسر حتى تتصل بحروف اللسان كما كانت كذلك في الايمن )  
هذا نص مشكل قد يستحيل على القارئ متابعة ما يقصد الكاتب به . ولعل سبب هذا هو  
كثرة التعليقات « لانها من حافة اللسان » ، « لانك جمعت تكلف الاطباق ... » « لانك نحوها  
من اليسار ... » « لانها من حافة اللسان ... » و « انها تحالط مخرج غيرها ... » « لانها تصير في  
حافة اللسان في الايسر ... » وذلك بالإضافة الى التكرار والحشو ولولا كثرة سيبويه بالوصف  
اليسيط دون تحليل او تكرار لكان نصه أوفى بفرضه .  
ونحن ازاء هذا النص نقترح بالخروج منه بأوصاف هذا الصوت . اما ما يسوقه من علل أو  
جدل فكل ما ينهي اليه القارئ لا يجاوز الظن او الحدس .

ج ١ ص ٣  
قوله ( وانما ذكرت لك ثمانية مجاز لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الاربعة لما يحدث فيه  
العاملي وليس شيء منها الا وهو يزول عنه ، وبين ما يبني عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء  
أحدث فيه ذلك من العوامل التي لكل منها ضرب من اللفظ في الحرف وذلك الحرف حروف  
الاعراب ) .

وردت هذه العبارة في سياق الحديث عن أواخر الكلمات . وقصد ذكر سيبويه أن آخر الكلمة قد يكون « رفعا أو نصبا أو جرا أو جزما أو ضيا أو فتحا أو كسرا أو وقفا » وهذه ثمانية مجاز تندرج في أربعة ضروب فالرفع والضم ضرب والنصب والفتح ضرب والجرا والكسر ضرب والجزم والوقف ضرب . أما الفرق بين الأربعة الأولى والأربعة الثانية ، فهو أن الأولى من تأثير العامل أما الثانية فانه بناء لا يزول من الكلمة بتأثير العوامل . والمنطق هنا سليم وواضح ولكن الصعوبة في العبارة التي نقلناها ترجع الى امور :

— عبارة « لما يحدث فيه العامل وليس شيء عنها الا وهو يزول عنه » تكون اوضح لو كانت « لما يحدث فيه العامل ويمكن ان يزول عنه » و يبدو لنا ان التعبير « ليس شيء منها الا وهو يزول » متأثر بلغة سيبويه الام .

— عبارة « ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث فيه ذلك من العوامل » تكون اوضح لو كانت « ما يبنى عليه الحرف ( اى الكلمة ) بذاته لا يتأثر عامل من العوامل التي لكل منها اثر في اللفظ » و يبدو لي أن سيبويه قد وقع هنا تحت تأثير لغته الام في استعمال العبارة « غير شيء » بمعنى « لا شيء »

استعمال لفظ « حرف » في هذه العبارة بمعنى الحركة الاعرابية في آخر الكلمة ومعنى « الكلمة » في مجموعها  
وبعد ، فلو أخذنا كتاب سيبويه كله يمثل هذا التحليل لظهر لنا الكثير من أمثال هذه العيوب الاسلوبية .  
وستكتفى الآن بذكر عدد من الامثلة لسوء استعماله للمفردات :

جد ١ ص ٤

في اول الصفحة يذكر سيبويه أن « الفتح لكل بناء من الفعل معناه فعل » ( اى الفعل الماضى ) وأن الفعل الماضى لا يسكن وأن الوقف ( البناء على السكون ) يكون في فعل الامر مثل اضرب . ثم يقول فيما بعد « ولا ضم في الفعل لانه لم يحمى ثالث سوى المضارع » ، وهو هنا يعنى أن المضارع من بين الافعال يمكن أن يكون آخر مفتوحا او مضموما او ساكنا .  
وعلى هذا يكون استعمال « ثالث » غير دقيق والاصوب استعمال « مثلث » او « ذو ثلاثة » الخ

يستمر سيبويه في نفس النص قائلا « وعمل هذين المعنيين بناء كل فعل بعد المضارع » يعنى بالمعنيين فتح آخر الماضى وسكون الامر  
وكان الادق ان يستعمل لفظ « الطريقتين » او « الحركتين » بدلا من « المعنيين » وكلمة « بعد » هنا لم تستعمل استعمالا سليما . وكان الاجدر استعمال « غير » محلها .

وبهذا فالأدق ان تكون العبارة كما يلي .  
« وعمل هاتين الطريقتين بناء كل فعل غير المضارع »

جـ ٢ ص ١٥٨

( هذا باب ما لا يجوز فيه نون خفيفة ولا ثقيلة ) وذلك الحروف التي للامر والتهى وليست بفعل . وذلك ايه وصه ومه واشباهها وهلم في لغة الحجاز ... ورغم انها لم الحقتها هاء التنبيه في اللغتين ... والهاء فضل انما هي ها التي للتنبيه ) .

استعمال لفظ اللغتين للإشارة الى تشديد مع « هلم » او عدم تشديدها يقتضى انه قد سبق له التحدث عن لغتين وهولم يذكر من قبل كما ترى سوى « لغة الحجاز » . صحيح انه قد ذكر فيما بعد « لغة تميم » التي تخفف او تشدد ولكن ذلك لا يجدي شيئا لان اللفظ يشير الى ما قبله . استعمال « انما » هنا يحتمل مخالفة ما قبلها لما بعدها ولا مخالفة بين كون الهاء زائدة وكونها للتنبيه . وهذا كان من الأوفق استعمال واو الاستئناف مكانها هكذا « والهاء فضل وهي ها التي للتنبيه »

ومن الممكن على معنى ما ان نفترض المخالفة وفي هذه الحالة يصبح استعمال انما « ولكن بشرطية استعمال الواو معها هكذا » والهاء « فضل ( وكان ذلك يقتضى عدم ذكرها ) وانما ذكرت للتنبيه » .

جـ ٢ ص ١٥٨

هذا باب مضاعف الفعل واختلاف العرب فيه ( والتضعيف ان يكون آخر الفعل ... استعمال اسم المفعول « مضاعف » وهو من الفعل « ضاعف » والمصدر « التضعيف » وهو من الفعل « ضعف » وكان الاولى ان يشتق الصيغتين من نفس الفعل لأنها يمثلان عملية واحدة هكذا

( ١ ) هذا باب مضاعف الفعل ... والمضاعفة ...

( ٢ ) هذا باب مضاعف الفعل ... والتضعيف ...

جـ ٢ ص ١٥٩

( هذا باب اختلاف العرب في تحريك الآخر لانه لا يستقيم ان يسكن هو والاول من غير اهل الحجاز ) تشير العبارة لاختلاف العرب في تحريك آخر الكلمة اذا كان الحرف السابق عليه ساكنا لانه لا يستقيم ان يسكن الآخر وما قبله .

وفي العبارة كما سبق فصل بين الصفة والموصوف ولكن الذى يعنى هنا هو استعمال لفظ « الاول » وواضح انه يشير الى الباب الى امرين :

الاول : الفعل المضاعف اذا كان في صيغة الامر . ولما كان أول جزئى المضاعف ساكنا ومقتضى بناء الامر ساكنا الآخر فاننا بازاء التقاء ساكنين وهذا يتحتم تحريك آخر الكلمة .

اختلف العرب من غير اهل الحجاز في نوع حركة التخلص من القاء الساكنين . وذلك مثل  
عَضُ عند بعض وعَضُ عند آخرين .  
الثاني : فعل الامر اذا وليه لفظ مبدؤه همزة وصل او بأداة تعريف وهنا يلتقي ساكنان  
تتخلص منها بالكسرة هكذا :  
« اضرب الولد وعلم ابنك »

وفي هاتين الحالتين يوقع استعمال لفظ « الاول في لبس » والاوّل استعمال لفظ  
« السابق » ومن الواضح ان اول لفظ « عَضُ » هو العين والذي يقصده سيبويه الضاء الاوّل  
المدغمة في الضاد الاخير « عَضُض » وفي المثال « اضرب الولد » تتوقع ان يشير لفظ الاخر الى  
الباء في « اضرب » ولفظ الاول الى اللام (بعد سقوط همزة الوصل) في الولد . والمقصود  
العكس ، اي انه اراد بالاول آخر لفظ « اضرب » وبالاخر اول لفظ « الولد »

جد ١ ص ٤

(والضم فيها (اي في الحروف) منذ فيمن جربها لانها بمنزلة من في الايام)  
١- الانسب استعمال « عند » بدلا من فيقال « والضم عند من جربها »  
٢- الانسب كذلك ان تكون العبارة « لانها تعني البعضية في الايام كما تعني من البعضية  
في الاشياء »

جد ١ ص ٤

(لانه لم يحمى ثالث سوى المضارع)  
المقصود ان آخر المضارع دون بقية الافعال يحتمل أن يكون على احدى حركات ثلاث  
الضم والفتح والسكون . ومن هنا فقد يكون اللفظ « مثلث » انسب من « ثالث » .

جد ٢ ص ٣٣٥

(فهذا الذي عنيت في الشركة) الانسب استعمال باء الجر فيقال « بالشركة »

جد ٢ ص ٢٤٣

(وانما صارت هذه الالف عندهم بهذه المنزلة لكثرة تنبئها في الاسماء . وما تقوى على انها  
زائدة انها ...) الانسب استعمال « وجودها » بدلا من « تنبئها » وحذف حرف الجر « على »  
هكذا

« لكثرة وجودها في الاسماء ، وما يقوى أنها زائدة ... »

جد ٢ ص ٢٤٤

(فإن لم تقل ذلك دخل عليك أن تزعم أن الحق بمنزلة دحرجت) الانسب «فإن لم تقل ذلك توهمت أنها الحق بدحرجت»

كذلك يستعمل سبويه اللفظ «شيء» على نحو قد لا يكون مألوفاً في العربية كما أعرفها . ولا استطيع الحكم على مدى قبول استعمال سبويه لهذا اللفظ عند معاصريه العرب .

— كثرتكرار العبارة «ولا شيئاً من هذا النحو لم تذكره» في الصفحات بين ٣٣٠ — ٣٤٥ من الجزء الثاني . وأنا أفضل العبارة «وقد ذكرنا كل ما جاء على هذا النحو» ، بدلا من تكرار النفي لاقادة الاثبات .

جد ٢ ص ٣٣٥

(اعلم أنها لا يلحقها شيء من الزوائد ...) الافضل «زائد من الزوائد» أو «أحد الزوائد» . وفي نفس الصفحة

(ليس شيء من هذا المقال . الا ما جاء فيه) الانسب حذف شيء هكذا

«ليس من هذا المقال إلا ما جاء فيه ...»

جد ٢ ص ٣٣٥

(لأنه ليس حرف في الكلام تنوالياً فيه أربع متحركات)

استعمال «حرف» هنا غير مقبول في رأيي ، كما أنه لم يكن مقبولا في رأيي استعمال «شيء» في التعليق السابق . ولعل السبب ان «شيء» و «حرف» اسم نكرة وقع اسما لليس . واظن ان عدم قبول الابتداء بالنكرة ينسحب على اسم كان وأغواتها . ولهذا فاني لا أعترض على استعمال هذين اللفظين مع تقدم الجار والمجرور في المثالين هكذا .

«وليس من هذا المثال شيء الا ما جاء فيه ...» و «لأنه ليس في الكلام حرف تنوالياً فيه ...»

جد ١ ص ٣

(... بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل)

المقصود بـ «لغير شيء» هو «لسبب آخر» . ويبدولي ان «غير شيء» بمعنى «شيء آخر» استعمال فارسي . وقد لاحظت استعمال هذا التركيب في اللهجة العربية العراقية المعاصرة حيث يقال «غير شيء» بمعنى «شيء آخر» . ولعل ذلك من تأثير الفارسية في هذه اللهجة

جد ٢ ص ٣٧٨

( وهي لا يقع شيء منها في موضع شيء من العلامات مما ذكرناه ... )  
الانسب استلوييا في رأيي عدم استعمال « شيء » ، وخاصة مع تكرارها . ونرى ان تكون  
العبارة « ولا يقع واحد منها في موضع أي من العلامات ... »

جد ١ ص ٣٧٨

( لانه ليس ههنا شيء أصله الواو ... )  
الانسب استعمال « ما » بدلا من شيء هكذا  
« لانه ليس ههنا ما أصله الواو ... »  
كذلك في نفس الصفحة ( وليس ههنا شيء يهمز أصله )  
والاقضل استعمال « ما » هنا كذلك  
وبعد فهذه ملاحظات ان عابت اسلوب سيبويه فانها ولا شك لن تنزل بقيمة عمله العلمي  
الضخم





**مظاهر معاصرة الجيلين  
لدى شيوخ شعراء الخليج  
(دراسة في شعر الشيخ عبد الله الخليلي)**

أ. د. أحمد درويش \*

النتاج الشعري للشيخ عبد الله بن علي الخليلي يشكل لحظة من اللحظات الفاصلة في تاريخ الأدب العربي في عمان ، واللحظات الفاصلة بين العصور الأدبية من أدق اللحظات في تاريخ الأدب المحلي والعالمي ، ذلك لأنها لحظات لا تظهر كل جوانبها أثناء فترة تفاعلها وتكونها ، والتقاء موجات المد والجذر ودوامات الصراع بين القيم المتقابلة داخلها ، فضلا عن أن حدود هذه اللحظات لا تستبين بوضوح إلا بعد انتهاء فترة من الزمن ، تتداخل فيها ظواهر العصر الذي يمضي مع ظواهر العصر الذي يأتي تداخل أمواج البحرين حين يلتقيان ، ومن ثم فإنه من الصعوبة يمكن أن يشار إلى اليوم الأخير من عام معين أو عصر معين على أنه نهاية عصر أدبي ، وإلى اليوم التالي له على أنه بداية العصر الجديد ، وكما يقول أحد النقاد الفرنسيين « ليس العصر الجديد زهرة تستعيق في الصباح فتجدها قد نبتت في حديقتك ، فتؤرخ لميلادها منذ ذلك اليوم » وإذا سألنا أن نحدد بدقة بداية عصر سياسي ونهاية عصر آخر من خلال أفول دولة وقيام أخرى ، فإنه لا يسوغ لنا أن نحدد قيام عصور أدبية توازي بنفس الدقة العصور السياسية ، وإذا كان عام ١٣٢٢ هـ مثلا يؤرخ به كنهاية للدولة الأموية وبداية للدولة العباسية ، فإنه لا يستقيم في التاريخ الأدبي أن نقول إن الإنتاج الذي ظهر عام ١٣١١ هـ يختلف عما ظهر في عام ١٣٣٣ هـ ليجرد أن كلا من هذين العاملين ينتمى إلى عصر سياسي مختلف ، ومن هنا كانت ملاحظة الباحثين على عدم دقة التقسيم الذي ارتضيناه لعصورنا الأدبية ، وجعلناه موازيا لتقسيم العصور السياسية (١) .

(٥) استاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، والمعارف إلى جامعة السلطان قابوس ، سلطنة عمان .

(١) أنظر ريجيس بلاشير : تقسيم جديد لعصور الأدب العربي « ترجمة » د . أحمد درويش ، مجلة « دراسات عربية وإسلامية » ، القاهرة العدد الثاني سنة ١٩٨٤ .

من هنا كان مؤرخو الأدب التقدماء على حق عندما التفوا إلى ظاهرة « الحضرة » وإن كانوا قد حصروها في أضيق حدودها عندما أشاروا إلى إطلاق اسم « المحضرين » على الشعراء الذين عاشوا من عصر بن متالين كالجاهلي والإسلامي والعباسي، دون التطرق إلى دراسة ما خلفه لك عصر على نتائجهم أو محاولة تبيين النقطة الفاصلة التي التقت فيها الخصائص المتقابلة، وتولدت عنها خصائص جديدة. وإذا وسعنا مفهوم « الحضرة » قليلا، فإنه ليس من الضروري أن تقتصر على الالتقاء في العصور السياسية، وإنما نتسع به ليمتد إلى إلتقاء التيارات الثقافية مثل الانتقال من عصر مجلس العلم والمخطوطة إلى عصر المدرسة والجامعة والكتاب المطبوع والصحفية السائر والتغيرات الاجتماعية، وتتابع مظاهر التطور في أشكالها المختلفة على مجتمع من المجتمعات، وما يعكسه ذلك كله بالضرورة من تغير في المذاق الفني، ووسائل الأداء والاتصال، سرعة أو بطئا، مشاقفة أو كناية، مباشرة أو من خلال « تقنيات » علمية متطورة، ودور الأدب خلال ذلك كله، حين يجد الأديب نفسه بعد أن امتلك ناصية الوسائل الفنية التي يتعامل بها مع مجتمع معين فيحقق له المتعة الفنية التي يشدها، و يتزود الأديب بدوره من خلال رد الفعل الإيجابي بزيادة ضروري يساعده على مواصلة الإبداع، حين يجد هذا الأديب نفسه أمام مجتمع هبت عليه تيارات مختلفة، فأثرت فيه أوفى بعض طبقاته تأثيرا يشد متعة فنية تختلف قليلا أو كثيرا عما أثبتت العصور السابقة تقديمه، فتكون قضية التوافق والتلاؤم هي محور ما يسمى عادة بقضية الجمع بين « الأصالة والمعاصرة ».

على أنه ينبغي الإشارة إلى أنه لا يكفي أن يقع الأديب في منطقة « الحضرة » حتى تنسب إليه قضية الأسهم في الموازنة بين « الأصالة والمعاصرة »، فقد يكون الوقوع في هذه المنطقة عاملا سلبيا يجعل الأديب حائرا بشاعته بين مناح مجتمع كان قد أعد نفسه له ثم أقل، ومناح مجتمع آخر لم يهزل نفسه له ثم فاجأه بالظهور، وكثير من أدباء « ما بين الفترتين »، ذهبوا في طي النسيان حين كان التاريخ يقلب صفحة عصر لينفتح صفحة عصر آخر..

ولاشك أن الشناج الشعري للشيخ عبدالله بن علي الخليلي يحمل عناصر كثيرة الإيجاب في فترة « المحضرة » أو الانتقال في الأدب العربي الحديث في عمان، ويعمل إن جانب هذه العناصر، عناصر أخرى قابلة للمناقشة ولا اعتبارها عناصر تاريخية، وذلك شيء طبيعي في نتاج شعري استمر أكثر من نصف قرن، وإن كان لم يعرف طريقه إلى المطبعة إلا منذ أقل من عشرين عاما، حين طبع ديوانه الأول من نافذة الحياة سنة ١٩٧٣ بالقاهرة، وهذا الفارق الأساسي بين عمر الانتاج وعمر النشر يثل سمة أولى من سمات الانتقال بين عصرين عاشها الشاعر، ينتمي الأول إلى عصر « السماع » وينتمي الثاني إلى « عصر القراءة ».

ولد الشيخ عبد الله بن علي الخليلي سنة ١٩٢٢ م (١٣٤٢ هـ) أو قبل ذلك بثلاثة أعوام سنة ١٣٣٩ هـ على خلاف في الرواية (٢)، في مدينة سمائل التي عرفت في عمان بأنها من المعامل الأولى للعلوم العربية والدينية، وانتقل بينها وبين نزوى مقر عمه الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، وتلقى في المدينتين مبادئ علوم القرآن والدين واللغة وما يتصل بها على يد شيخ من أمثال زاهر بن سعود الرحبي، ومحمد بن عبيد السالمي، وسالم بن حمود السيابي، وخلفان بن جليل، ومحمد بن خيس اليوسفي، وقاده هؤلاء الشيوخ إلى المناهل الأولى لمجمل الثقافة الإسلامية العربية لكي يواصل طريقه في التزود والتثقف فأقبل على كتب الأملات في علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ، واستأنس ببعض من نتاج الشعراء المعاصرين مثل شوقي، وأتأس في نفسه في وقت مبكر ميلا إلى قول الشعر تمثل في ظهور نزعة جمالية لونت نظراته إلى الطبيعة من حوله، وهو يسجل بدايات مولد هذا الشعور لديه في نص مهم يرد في مقدمة ديوان «وحي العنقري» حيث يقول (٣) :-

«خرجت ويرفقتني عشرون راكبا من خيرة الرجال، وكانت المواصلات آنذاك يوسائل عادية إذ لم يكن وجود السيارات حينذاك بعمان فتجد الماشي في الطريق وصاحب الفرس والبعر والحمار، منها المعد للنقل، ومنها المذلل للركوب، أما مطايانا فكانت من خيرة الإبل إذ أنها خصصت للوزن الدولة.. خرجنا بها نشق الوادي الخصيب من سمائل وقد تفجرت ينابيع الرى، وعقدت الترع منه للبلاد، وكان وسطه مفعرا بالماء المذهب الذي فضل عن حاجات البلد وكانت أخفاف الإبل كأنها تقدح الحجر تارة وتطيش بالماء أخرى جامعة بذلك بين صدين لا يعيشان مجتمعين الماء والشار.. ومنذ ذلك اليوم بدا لي أن أقول الشعر وأنا أنظر الماء والشار.. وإلى التسم الآخر المتحجر في صحن الأودية، وقد انعكست به زرقة السماء وخضرة الشجر».

إن هذا النص ذو أهمية خاصة لأنه يصور المناخ الذي ولدت فيه شاعرية الخليلي وهو المناخ

(٢) يذكر الشيخ سعود بن علي الخليلي في مقدمة ديوان «وحي العنقري» للشيخ عبد الله بن علي الخليلي أن المؤلف ولد سنة ١٩٢٢ م، ويتابعه على هذا معظم الدارسين، مثل: نورية الرومي: «طواغيف في فن عبد الله الخليلي» مجلة البيان الكويتية، مارس ١٩٨٤، وأحمد شيباط في كتاب «أدباء من الخليج العربي» ص ١٦٨، وأحمد الطبع في «شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية» ص ٣١٠، ولكن المؤلف العماني عبد الله الخليلي ينسب ذكر سنة ١٣٣٩ م كتاريخ ميلاده، في كتابه «آداب المعاصر في الخليج العربي» ص ١٨١، أما الشيخ ساد بن حمود السيابي، فهو يذكّر في كلمة النشر بطأ صدر بها ديوان «وحي العنقري» عبارة «سنة» فهو يقول تحت عنوان: «صره الآن هو الآن في غرة العهد الخامس من عمره أي أنه بين الأربعين والخمسين»، وإذا عكسنا أن الديوان قد طبع سنة ١٩٧٨، فإن هذا أن الشيخ ولد في الثلاثينات من القرن اليلادي وهو ما يتوافق كل الباحثين الذين تشكروا على مولده في العشرينات لكن هذا ليس يمكن أن يعين على تفسيره تارة في كتابه كلمة النشر بطأ صدر بها ديوان «وحي العنقري» ص ١٨٢ هـ وإذا صحح هذا التاريخ فإنه معناه أن هذه الكلمة كتبت قبل طبع الديوان بشأنة عشر عاما، إذا طبع سنة ١٣٩٨ هـ كما جاء على الغلاف، ومن المتقول أن يكون الشيخ عبد الله ولما في العقد الخامس، وإن كان هذا يستلزم توسيع سبأته على بين طبع الديوان وتنفيذ طبعه ١٨ عاما.

(٣) ديوان الخليلي... وحي العنقري، ص ٤١، وزارة التراث القومي والثقافة، مطبعة عمان، سنة ١٩٧٨ م.

الذى رسم لها الأقطار معظم رحلتها الفنية ، وحتى عندما نمت خطوات التطوير ، تمت في الغالب انطلاقاً من هذا المناخ ، لقد ولد الشعر عنده على إيقاع الأبل والحبول ، وفي مشهد يعد امتداداً حياً وطبيعياً للمشاهد التى كانت تألفها البيئة العربية منذ عصور طويلة ، وهولاً ذلك مشهد عايش مثله امرؤ القيس والمتنبى وأبو فراس ، ولم يعايشه شعراء حواضر المواصلات الحديثة في عصرنا من المقلدين على نفس الدرجة من الصدق والاندماج ، وانطلاقاً من هذا فقد ظل مفهوم الشعر ، ودور الشاعر ، وبجاء حركته ، وصلته بالتراث السابق عليه ، وصلته كذلك بالمتلقين من حوله ، ظل هذا كله عند الخليل متأثراً بذلك المناخ ومرتبطة به ، وحتى في مجال تصوير الحركة الحسية البحتة ، فقد ظل شعر الخليل أكثر صدقاً واندماجاً مع المشاهد التى تتم الحركة خلالها بالوسائل القديمة ، منه مع تلك المشاهد التى تتم الحركة فيها بالوسائل الحديثة ، ولننظر إلى هاتين اللوحتين التى تتم فيها الحركة من خلال الحصان والطائرة ، لنرى كيف كانت درجة الانتماء مع كل عنصر منها يقول في اللوحة الأولى عن مغامرة بطولة ليلى (١) :-

تبسطته والليل يسود وجهه	وللخيم في أرجائه جيش توبان
يخيل لى أنسى على الماء تارة	وطورا بأجبال وطورا بكشبان
أقول لمهرى وهو يقدم مرة	ويحجم أخرى كالعشور بميدان
تقدم فما لى في وعى متأخر	والا فلى من جانبى عزم مطعان
أعجم أشفافاً عليك من الردى	وتطمع أن تحبى بىكشى ومكان
أعجز من كانت له نفس مؤمن	بأن ملاك الأمر في يد ذى الشأن
فقال لك الله اختر قدر همتى	فعرزمى في الجلى كعزمك سبان
فجربى أنسى شئت شرقاً ومغرباً	تجد صاحباً أوفى ذماماً لأخذان

هذا النفس الشعرى القوى الذى يتدمج فيه الليل والحيل والبيداء و بطولة الفارس وسمو الكلمة يذكرنا بروائع الشعر العربى في عصوره الصافية الزاهية ، ولا تبدو عليه أى مسحة من تكلف ، لكننا نجد نفساً آخر مختلفاً عندما يختلف المناخ و يصف الشاعر رحلة بالطائرة حين يقول (٢) :-

يعام ثلاث غب تسعين أعقبت ثلاث مئين ألفهن فريد

(١) وحى العنبرية ص ١١٦ .

(٢) السابق ص ١٧٦ .

لسبب ليال بعد عشر لمعقدة      خلعت صدقتنا بالعزوم جود  
أثينا مطار السيب والظهور مشرف      علبينا وعزم الطائرات عنيد  
نذلل منها للمرام فنية      تمزق ثوب الأفتق وهو جديد  
فما وقعت في مدرج منذ خلقت      سوى مدر ثم حيث نريد  
لنستظهر الظهران عن خير قصدا      ونبدأ بالخير المدى ونعيد

إن الفرق في النفس الشعرى بين المقطوعتين ، وربما تعدد الأسباب التي أدت إلى ذلك ، ولكن سببا رئيسيا منها دون شك يعود إلى علاقة التأمل ووجود الذات الشعرية عبورا لها بالقياس إلى سرعة حركة الكائنات من حولها ، ولا شك أن مفهوما معينا للحركة ارتبط بميلاد الطاقة الشعرية الأولى عند الشاعر ، وتبثته قراءات طويلة متأنية في التراث الشعرى ، جعل النفس الشعرى الجيد يزداد تألقا في مناح اللوحة الأولى .

إذا كان هذا التقابل بين اللوحتين السابقتين يمثل لونا من « الثنائية » في الوسائل الفنية عند الشيخ الخليلي ، فإن هذه الثنائية امتدت لتشمل كثيرا من عناصر الأداء الفني عند ، وتبدو معها هذه العناصر موزعة بين وفاتها للمناخ الذي ولدت فيه واشتقت منه ، واستجابتها لجانب من حاجة التطور الذي ألم بالعصر في مرحلة لاحقة بعد ميلاد الشاعرية وتكوينها .

ولعل أول ما يلفت النظر من عناصر هذه الثنائية ، هو الثنائية على مستوى المعجم اللغوى الذى يلجأ إليه الشاعر ، فهو يجد أمامه من ناحية نماذج الشعراء الفحول الذين حفظ لهم وتأثر بهم ، وتكونت ثروته اللغوية على أيديهم ، وهذه الثروة هي التي تستجيب له بفردتها في لحظة العطاء الشعرى ، لكنه يجد من ناحية ثانية ذلك الجمهور الذى يقرأ شعره أو يسمعه ويستمع به ، وتحول غرابة الكلمات أحيانا بينه وبين الوصول إلى لبه المتعة الفنية ، وينبغى أن يشار هنا إلى أن هذه المشكلة ليست جديدة وليست خاصة بالشيخ الخليلي وحده ، وإنما هي مشكلة وقف أمامها كثير من الشعراء حتى في العصور المتقدمة ، وتنوعت أمامها المفاقات بين إشار لفخامة الغريب بما يدل عليه من خصوصية في التلقى والاستيعاب وغزارة ثقافة وعمق اتصال ، وبين إشار للكلام السهل السلس بما كان يرتبط من رقة الذوق ومد حبال التواصل ، ولقد كانت مشكلة المعجم في الشعر القديم تنبذ أحيانا من خلال تنوع المقدرات سهولة وغرابة على الأجناس الأدبية وإشار كل جنس بما هو أليق به ، على هذا النحو كانت تأتي الطرديات والأراجيز غالبا وهي ترتدى معجبا خاصا بها بما كى لغة الأعراب الذين تشبع بينهم هذه الفنون على حين تأتي قصائد الغزل والعتاب والمديح وما شاكلها في لغة « حضرية » لكن كلاما من اللغتين كان يمكن أن نعو حوله شبه ما يمكن أن تقلل من قيمة الشاعرية ، فالأولى ينددها

«والإغراء» والاتفاق « والثانية يتهدا « الضعف » ومن هنا كان بعض الشعراء الحضرين يدفعون عن أنفسهم التهمة باللجوء أحيانا إلى صياغة قصائد من الطرديات والأراجيز، كما كان يفعل بشار وأبونواس، كما كان يتم الدفاع أحيانا عن اللغة بأنها تستطيع الوصول إلى مرام بعيدة، ومن خلال هذا فرقوا بين « الغرابة » و « الجزالة » (٦) وقد عبر البحري عن ذلك تعبيراً موفقاً حين قال في وصف كلمات ابن الزيات (٧) :-

حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبين ظلمة التعقيد  
وركن اللفظ القريب فأدركن به غايمة المرام السعيد  
وكان هذا هو المذهب الوسط الذي جاءت عليه كثير من عيون القصاص العربية، لكن أمر المعجم الشعري بدأ يأخذ بعداً جديداً مع الاقتراب الشديد للشعر من الجمهور بعد ظهور المطبعة، وحرص الشاعر بنفسه على أن يقدم نتاجه للناس، وأن يحاول إقامة الجسور بينهم وبين الطريق المؤدية للرب الذي يتوخاه، وكانت قضية المعجم شاغل الشعراء أنفسهم، وأوضح دليل على ذلك اللجوء إلى الهوامش التفسيرية في أسفل صفحات الدواوين وهي هوامش يضعها الشاعر المعاصر بنفسه غالباً وتشير إلى محاولته لسد الفجوة بين المعجم الشعري وبين اللغة المفهومة من جمهور المثقفين، ومن هنا فإنه يمكن اعتماد مبدأ شيوع الهوامش الشعرية في إنتاج شاعرنا، قلة أو كثرة باعتبارها دليلاً موازياً على مبدأ تطور المعجم الشعري عنده من هذا المنظور.

وقبل أن نطبق هذا المبدأ على دواوين الشيخ الخليلى تشير إلى أن دارسيه كانوا دائماً يشيدون بسلامة لغته وصحتها وجزالتها، وأحياناً يتوقفون أمام شيوع الغريب فيها، يقول الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم (٨٧) : « الشيخ عبد الله الخليلى نموذج جيد لتثليل هذا الجيل (جيل المتأثرين بالثقافة) على الأقل في مراحله الأولى، وفيه حسنات هذا النفر التي تتمثل في طرده كل أغراض الشعر وق الحفاظ الوعر على اللغة والموسيقى الخليلية، فلا تكاد تخطئها النظرة المعجلى إلى شعره... وتروعك منه تلك القدرة الفائقة على التنظيم، والتي فاقت كثيرين من أبناء جيلنا لأنه صرف كل هم إلى التجربة والتجديد، على حساب اللغة الجزلة المصقولة في كثير من الأحيان ». ويقول الأستاذ أحمد الجدع (٩) : « أن هذه الثقافة الإسلامية وذلك الرصيد العلمى، جعلنا شاعرنا شديد القسك بالأسلوب العربى الرصين وبالمنهج الشعرى

(٦) انظر الصنائع لابن هلال العسكري ص ٤٩ - القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ .

(٧) ديوان البحري، ص ٢٠٦، طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م .

(٨٧) فى الشعر المعاصر ص ١٥ - القاهرة سنة ١٩٨٩ .

(٨) شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية: عبد الله بن علي الخليلى شاعر من عمان، ص ٣٩٤ .

الخليلى « و يشيىف فى موقع آخر (٦) : « واستخدم الشاعر فى قصائده لغة هى أقرب للغة السابقين منها إلى لغة الحاضر ين ، ولعل الأجواء التى عاشها الشاعر فى أثناء نظم هذه القصائد ، هى التى دفعته لاستخدام هذه اللغة ، ونحن لا نعيب استخدام الألفاظ القديمة بل نحن من أنصار احياء هذه الألفاظ ، ولكننا لسنا مع حشدها بحيث تنقلب القصيدة إلى نموذج للشعر القديم » .

سلامة المعجم الشعرى عند الشيخ الخليلى اذن مع جنوحه إلى المعجم القديم وهى موضع اتفاق من دارسيه ، لكننا نود أن نشير إلى التطور الذى حدث فى لغة هذا المعجم ، استجابة لدواعى « الخضربة » التى تم فيها الانتاج ، وإذا أخذنا الهوامش التى أشرنا إليها معيارا لقياس هذا التطور ، وقارنا من خلافا بين أشهر دواوينه ، ديوان « وحى العبقريه » والذى صدر سنة ١٩٧٨ ، وآخر دواوينه « على ركاب الجمهور » والذى صدر سنة ١٩٨٨ ، فانا سنجد النتيجة التالية :-

الديوان	سنة الطبع	عدد الصفحات	عدد الهوامش المفسرة
وحى العبقريه	١٩٧٨	٥٣٠	٨٠٩
على ركاب الجمهور	١٩٨٨	١٤٠	هامشان

وهذه النتيجة لا تحتاج من الناحية الإحصائية إلى تعليق ، وإن كانت تحتاج إلى بعض الملاحظات التوضيحية :-

(١) الفرق بين طباعة الديوان هو عشر سنوات ، لكن ذلك لا يمثل فى الواقع الفرق بين « تأليفها » ، ذلك أن قصائد الديوان الأول ، اذا كانت قد جمعت سنة ١٩٧٨ ، فإن تاريخ كتابتها بعضها ، يمتد قبل ذلك إلى نحو أربعين عاما وإذا كانت قصائد الديوان ، قد دخلت من الثبات تاريخ كتابتها ، فيما عدا السليل ( وتلك ثغرة توهم تلافيها لساعدت على إعطاء مز يد من الدقة فى رصد التطور التاريخى فى كثير من جوانبه ) فإن بعض الأحداث التاريخية تشير إلى قدم كتابة القصائد ، فهناك قصائد فى مدح الأمام محمد بن عبد الله الخليلى ورنائه ، وقد توفي فى عام ١٣٧٣ هـ أى قبل خمسة وعشرين عاما من

(٦) المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .



طبع الديوان في سنة ١٣٩٨ هـ ، ومن ثم فلا ينبغي أن يحسب هذا الفارق على أنه فارق حدث في عشر سنوات ، وإنما على أنه يجعل الإستجابة لظن يقتن ، تنتمي أحدهما إلى الأصالة وتنتمي الأخرى إلى المعاصرة .

(٢) كان موضوع الديوان الثاني وهو الشعر القصصي الحر ، وعنوانه الذي يشف عن توجهه « على ركاب الجمهور » عاملاً مساعداً على اكتسابه صيغة لغوية معينة (١٠) ، لكن ذلك لا يمنع هذا الديوان من حق تمثيل الفترة التي ظهر فيها ، خاصة أن قصائد الشيخ الخليلي التي ظهرت متفرقة في الصحف خلال السنوات الأخيرة ، والتي لم تجمع بعد في ديوان ، تنحومحى لغويا ، يتجه تطورا من المحور الأول الذي يشله « وحى العبقريّة » إلى المحور الثاني الذي يشله « على ركاب الجمهور » وهذه القصائد بحاجة إلى دراسة متأنية بعد تجميعها ، ولكننا يمكن أن نشير هنا عابرين إلى واحدة من هذه القصائد ، وهي قصيدة « المسيح والحائنين » والتي أجز بنا حولها تحليلاً مفصلاً من قبل (١١) .

(٣) ينبغي أن يشار إلى أن توزيع الهوامش في ديوان « وحى العبقريّة » حدث فيه لونه من عدم الاطراد ، وهذا ما جعلنا لا نستشبح وجود نسبة مئوية للكلمات الغريبة من حساب العلاقة بين عدد الصفحات وكلماتها وعدد الهوامش ، ذلك أن إثبات الهوامش في الجدول جاء على النحو التالي :

	من - إلى	عدد الصفحات	عدد الهوامش	عدد الكلمات تقريرا	النسبة المئوية للكلمات الغريبة
القسم الأول	١٦١-٣١	١٣٠	٧٤٣	١٩٨٩٠	٣,٧٣%
لقسم الثاني	٤٠٢-١٦٢	٢٤٠	لا يوجد	٣٦٧٢٠	صفر
القسم الثالث	٤١٢-٤٠٣	٩	٤٦	١٣٧٧	٣,٣٤%
القسم الرابع	٤٧٧-٤١٢	٦٥	لا يوجد	١٩٤٥	صفر
القسم الخامس	٤٨٣-٤٧٨	٥	٢٠	٧٦٥	٢,٦١%

(١٠) انظر الدراسة التحليلية في مقدمة « على ركاب الجمهور » بقلم الدكتور أحمد دويش ، مسقط ، سنة ١٩٨٨ .

(١١) اللغة العربية : دراسات ونصوص - كلية الآداب - جامعة السلطان قابوس ، ١٩٨٧ م .

وهذا الاضطراب لا تفسر له في الديوان ، فلا هو مرتبط بموضوعات بعينها ، ولا الصفحات التي تركت دون تهميش تحمل مستوى لغويا يختلف عن الصفحات التي ذيلت بهوامش فهنا وهناك يجد القارئ ما يستدعي التفسير حيناً ، وما ليس بحاجة إلى تفسير في كثير من الأحيان ، ومن هنا حساب النسبة الجزئية ، تكون أدق وهي نسبة تدور حول ٥٠ ٪ في الصفحات التي وردت فيها هوامش ، في حين أنه لو تمت نسبة الحصر الكلية قياساً إلى عدد كلمات الديوان ( وهي نحو ٧٠٩٩٢ كلمة ) وعدد الهوامش الكلية ( ٨٠٩ هوامش ) ، لكانت نسبة الغريب في الديوان ١٣ ٪ ، وهي نسبة غير دقيقة عندما يؤخذ في الحسبان هذا الاضطراب الذي أشرنا إليه .

٤ - لا يتوقف التفاوت في استعمال الغريب على الانتقال من فترة إلى فترة وإنما يوجد التفاوت في الديوان الواحد ، حيث يختلف المعجم الشعري اختلافاً بيناً من قصيدة لأخرى حسب ما يراه الشاعر من دواعي الموقف وأغاط التلقين فحين يتصل الموقف مثلاً بتقليد قصيدة تراثية كما حدث في قصيدته « المقصورة » التي يعارض فيها مقصورة ابن دريد المشهورة ، يلجأ الشيخ الخليلي إلى صياغة قصيدة طويلة من مائتين وأثنين وخمسين بيتاً ، وتكثر فيها الهوامش اللغوية حتى تصل إلى مائة ثلاثة عشر هامشاً ، محقة نسبة في الغريب تصل إلى نحو ٩٢ ٪ ( ٤٠ ٪ ) ويمكن أن يلحظ هذا الانحياز من أبيات القصيدة الأولى :

يسارى البرق يلهل السما	يخط أسطارا كلالا السنا
تسوقه لواقح ندية	ومرزم بين حنين ورضا
حتى اذا غرى به هادره	ونخاف منه أرسل الدمع بكما
فاضحك الأرض فعدت وربت	وانبست من كل زوج مائفا
يا برق داج أربعى مناجيا	عن همسات الشوق في دمع الحيا
يا برق ناغ مهجتي ميسما	عن نغمة اللطف وهمة الرضا

وذلك النوع من البناء اللغوي الذي يرد في المقصورة (١٢) ، يتفق مع الأهداف التي كانت تقال من أجلها أمثال هذه القصائد ، وهي تعود في جزء هام منها إلى إثبات « المقدرة اللغوية » لأنها تنسج على نخط قديم ، قد تمت معارضته مراراً ومرات ، ومن ثم فالشاعر يضع في الحسبان ، احتمال المقارنة مع سلسلة من الشعراء سبقت في النسيج على متوال هذه القصيدة ، وأولهم شاعر القصيدة الأولى نفسه ، وهو هنا ابن دريد ، من هذه الناحية يكاد يلتقي هذا النوع من القصيدة

(١٢) الرجوع السابق من ١٢٣ . ونود أن نشير هنا إلى أن نماذج بناء القصائد المقصورة قد ظل يراود الشاعر فيما بعد ، حتى أصدر موسوعة شعرية كاملة ، صدرت في ديوان مستقل بعنوان « وهي التي » سنة ١٩٨٠ ، وجاءت كلها في شكل قصيدة وعظيمة مقصورة التزمّت في قافيتها الألف القصصية أو السجدة الغفنة وما شاكلها من الأفعال وبلغت أبياتها أكثر من ستمائة بيت ، واكتسبت قيمتها الأساسية بما تحتوي عليه من مواقف وتفاصيل رقت على حروف المعجم كلها .

بقصائد « البديعيات » التي شاعت فترة في مجال المديح النبوى خاصة والتي كان أصحابها يحاولون فيها اثبات مقدرتهم على الاتيان بألوان بديعية أكثر من سبقوهم ، وإن جاء ذلك على حساب محتوى القصيدة ، الذى يحتل فى العادة مرتبة متأخرة فى مثل هذه القصائد ، والذى يجيبه وقد شابه بعضه بعضا ، وهى سمة قد لا تنبع أيضا عن قصائد المقصورات .

غير أن هذا المستوى اللغوى ، لا يطرد فى الديوان كما أشرنا ، وإنما يختص الشيخ الخليلي فى حالات كثيرة إلى لغته الخاصة فيبدي لنا لغة « جزلة » على الطريقة التى يحدد شروطها القدماء ، ويتمتع بها المعاصرون ، وهنا يبدو الأسلوب « الرقيق » وكأنه هدف هام للقصيدة ، بل وكأنه قيمة جمالية مستقلة و يبلغ من اعتزاز الشاعر بها أن يقرنها بالحياة مع الحب ، كما سنرى فى هذا المقطع الرقيق من قصيدته الغزلية : « همسات الدواع » (١٣) :-

وحبيب كأنه نظرة النعماء	فى نفحة النسيم الرطيب
عشت عمرى بقربة اجتلى النعمة	والعيش فى الرداء القشيب
وتعشيت به جلالا وحسنى	وجالا ونفحة من طيب
وتعشيت بالحياة به خضرا	أحلى من رقة الأسلوب
ولست النسيم سردا لديه	بين أزراء أنسه واجنوب
يساحبني فى خلقة اللين	والرقة والفتج فى مهابة لعبوب
والسوقا والسوام والصدق	والانخلاص واللطف فى ذكاء اللبيب
هاك روحى فاستبقها أو أضعها	سلمت روحك التى تحتفى بى
لست أنساك فى جمال عيناك	وفى ذلك القوام الرطيب
لست أنساك فى خلقتك النفر	وفى خلقتك البديع العجيب

أننا هنا مع نفس شعري يختلف مذاقه عما ألفناه فى المقصورة ، والقارىء غالبا لا ينتظر إلى أسفل الصفحات وهو يقرأ أمثال هذه المقطوعة ، إن القصيدة هنا تعمل المتلقى معها وتشغله عما عدا الجرس والإيقاع ، بينما كان على القارىء أن يعمل هو القصيدة فى مثل النقط الأول ، ولكن يجعلها فلا بد أن يكون قارئنا ذا قدرة خاصة ، وذا بصيرة بالدروب الدقيقة ، وربما ولد ذلك متعة لدى ذلك القارىء المتميز الذى يحس بأهليته لحمل ذلك العبء الوقور .

ولا شك أن ذلك الفارق فى التصور بين ما يقدمه كل لون ، يجعل النقط الثانى أقرب إلى أذواق عامة المعاصرين ، دون أن يمنع ذلك من نسبة هذا اللون إلى عائلة عريقة فى الأداء الشعري تصعد من ناجي وعلى محمود طه ، واسماعيل صبرى فى العصر الحديث ، وتمتد إلى الباحثين وابن الرومي والعباس بن الأحنف وجماعة الظرفاء وأصحاب الغزل الرقيق فى العصرين العباسي الأموي .

إلى جانب هذين المستويين في الأداء اللغوي في القصيدة ، نجد مستوى ثالثا يتجلى على نحو خاص في القصائد ذات الطابع القصصى « من الشعر الحديث » في ديوان « على ركاب الجمهور » ، وهو الديوان الذى لاحظنا خلوه تقريبا من الهوامش التفسيرية في هذا الديوان سوف نجد مستوى لغويا ، يختلف عن مستوى « الغريب » الذى عرفنا غطه في المقصورة ، ومستوى « الجزل » الذى رأينا غودجا منه هبات الوداع ، ويمكن أن يوصف هذا المستوى الثالث بأنه « مستوى عملى » لا يدعو القارئ إلى التأمل في لغة القصيدة في ذاتها كما كان الشأن بصفة عامة في المستويين السابقين ، وإنما يدعو إلى التأمل في المحتوى الذى يساق إليه من خلال هذه اللغة « العملية » وينصرف تركيز الشاعر في هذه الحالة إلى « الحكاية » التى تريد أن تقدمها وما يستنتج من نتائج وعظات وعبر ، فضلا في قصة « كيف أعمل » بدور في أحد المشاهد حوار بين « مفوض » و « ظالم » ، وهما الشخصيتان الرئيسيتان في الحكاية ، حول المكيدة في الحرب ، فيأتى على لسان « مفوض » هذا القطع (١٤) :-

يا ظالما  
ما تم تنفع قوة أبدا ولا بطش عنيف  
لكنه التفكير والرأى الخصيف  
في حيلة .. جبارة بخيوطها لا يمتان  
فهللم للمصحراء  
نجمع حولنا الخطب الكثير  
وتسوقه حتى نكومه أمام الباب  
من جحر الشجاع  
ونجىء بالتيران ثمة تشعل الخطب الوقود  
فإذا أقام بسبيته ذاك الشجاع  
خوى  
فأذكره الدخان قات في ذل مهان  
وإذا تهود  
أحرقته النار ، فهو يغير شك ميت  
تمت المسوان

إن اللغة هنا مع خلوها من المفردات الغريبة أو الجزلة ، تكاد تخلو أيضا من وسائل التكثيف الشعرية الأخرى من رمز وإيماء ، بل وتكاد تخلو من التصوير نفسه ، وذلك استجابة للهدف

(١٤) على ركاب الجمهور .. من الشعر الحديث ، تأليف عبد الشين عن الخطيب من ٤٨ ، مسقط سنة ١٩٨٨ ، مطبعة النهضة .

العلمي الذي تتوخاه القصيدة أو القصّة الشعرية ، غير أنه لا يد أن نلاحظ أن القصّة الشعرية ، لا يجيء مستوفاها اللغوي كله عند الشيخ الخليلي على هذا النحو، حتى في داخل الديوان الواحد، والفترة الواحدة . فنحن نجد في ديوان علي ركاب الجمهور، مقاطع من قصائد ، يتحلى فيها الأسلوب عن هذا « المستوى العلمي » يقترب من المستوى الجزل ، وهو في الوقت ذاته يتخلل عن منح السرد الخالص — كما رأينا في المقطع السابق — إلى منح التصوير، كما يمكنه أن يظهر في هذا النص من قصّة « صرامة الفاروق » (١٥) الذي يصفه فيه عمر بن العاص أرض مصر:

أرض الكنانة اسحبى بالدين أذيال المنى  
وباركى الفسطاط  
حول نيلك الذي بكل الخير في الأرض جرى  
بأسباب الفنى  
بالعز بالشفعة بالسؤود بالفخر بينم يهدي  
بتعمّة الله  
تحتضن الأرض جلاله وفي غلاله آيات السما  
يقذف من جملة الرزق  
لجينا صافيا على نضار أرضه كما يسأ  
كأننا يطعمت من كعبها  
أضعها  
وقد تبرجت ، ونضجت ببقائها ، فلتحت وولدت  
كل نعيم وغنى  
على سرير مجده ، على سرير عزه  
وكل ما دب على هذا السرير ناعم  
والله جل منعم كما يشأ

لقد كان ظهور وغلبه « المستوى العملي » في لغة الديوان الأخير، مشار نقاش وجدل بين قراءة شعر الشيخ الخليلي ، وخاصة أن قصائد هذا الديوان ، جاءت في شكل قصائد من الشعر الحر، ففقدت في رأي من لم يتحمسوا لهذه التجربة عند الشيخ الخليلي ، ميزات قديمة دون أن

تستعيب عنهما مميزات حديثه (١٦)، وقد يكون صحيحاً أن تمكن الخليلي من أدوات الشعر الملتهزم، وأنه بمنأى عنه، يجعل حركته هناك رغم القيود أكثر طواعية، ويؤكد ما قلناه في موضع سابق من هذا البحث، من أنه ألف إيقاعاً معيناً في الحركة فهو معه أكثر تجاوباً، لكن تمكنه من الارتقاء بمقاطع من المستوى العملي للاقتراب بها من المستوى الجزل من ناحية، ثم هذه القيمة النفسية لإقدامه هو على خطوة تجديدية من ناحية أخرى يجعل لهذا الديوان الأخير وزناً خاصاً في قياس حركة الأصالة والمعاصرة عنده (١٧).

تمثل «الموضوعات الشعرية» مؤشراً هاماً من مؤشرات الانتقال من مفهوم إلى آخر، أو من تصور جيل إلى تصور جيل تال له، لوظيفة الشاعر، ومسؤولياته لتحقيق الاشباع الفني تجاه ذاته أو تجاه مجتمعه، على اختلاف في مفهوم المجتمع من عصر إلى عصر، أو ميله لترسيخ أقدامه في الفن من خلال «محاكاة» النماذج الفنية العليا التي سبقت في الفن الذي ينتسب إليه.

ولقد كان تحديد الموضوعات الشعرية جزءاً هاماً من المعايير التي يستند إليها مفهوم «عمود الشعر» عند النقاد العرب، ومن خلاله يتم التفريق بين الذين يلتزمون بموضوعات القصيدة التقليدية، وينسجون فيها يسمى «التحام أجزاء النظم والتثامها فيصرون من الوقوف على الأطلال إلى بكاء الديار فوصف الرحلة ومشائها والتخلص إلى المدح وهؤلاء يدرجون في دائرة «القدماء» إذا استوفوا شروط الالتزام الأخرى، وبين أولئك الذين يخرجون عن هذا فيعدون من «المحدثين». وتشهد في كتب البلاغيين والنقاد العرب عبارات كثيرة في هذا الشأن من أمثال عبارة ابن رشيق:

«بنى الشعر على أربعة أركان وهي المدح والمجاء والنسيب والثناء، وقالوا قواعد الشعر أربع، الرغبة والرهبة، والطرب والغضب، فم الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرغبة يكون الأعذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون المجاء والتعبد والعتاب والتوجع» (١٨).

لقد ظلت تمثل هذه الأركان والقواعد في مجملها التصور الشائع لما يطرقه الشاعر من موضوعات ولقد تفرع عنها موضوعات أخرى ولكنها تظل في إطارها، مثل الافتخار بالذات أو بالقبيلة أو بأرض الأمة في شكل الشعر التاريخي، وكذلك المديح النبوي الذي شغل حيزاً هاماً في التراث الشعري العربي، وعرفت العصور اللاحقة إضافة أبواب أخرى إلى الشعر مثل الأخواتيات والمراسلات بين الشعراء، إلى جانب ما شاع كذلك في بعض الفترات من ألوان من

(١٦) انظر الشعر النعماني المعاصر، د. عبد المنعم عبد الحليم، ص ٥٣.

(١٧) انظر الدراسة التي كتبناها في صدر، ديوان علي ركايا لجمهور، بعنوان: الخليلي وقبيرة الشعر الحديث.

(١٨) العمدة في نقد الشعر، لعبد الرحمن بن رشيق القيرواني، تحقيق عبد الحميد، ج ١، ص ١٧٧.

«نظم العلوم» شعراء سواء كانت علوم اللغة أو علوم الدين، وقد امتد هذا الاتجاه ليشمل علوم الفلك والبحار، وليستجيب بذلك لضرورة حيوية في حفظ المعرفة الشفهية وسهولة انتقالها من خلال النظم في عصر كان الاعتماد فيه على السماع أكثر من القراءة، ومع جلال الهدف الذي أدته هذه المنظومات فإنها تقتصر على الاستفادة من الشعر بوزنه فقط، وتبقى لها بقية خصائص النثر، مما دعا القدماء والمحدثين معا إلى نسبتها إلى النظم لا إلى الشعر.

و ينبغي أن نشير كذلك إلى أنه لحق بهذا التصور في مفهوم موضوعات الشعر بعد أن تراكمت الخصوص الجيدة منه عبر أجيال متعددة، فن معارضة هذه النصوص والنسيج على منوالها في شكل المعارضات والتخمين والتربيع وما شاكل ذلك.

هذا التصور القديم في مجمله احتفظ التصور المعاصر للشعر بلب عناصره، وبدأ يضيف إليه عناصر أخرى جديدة، من واقع دور الشاعر في المجتمع، ومن واقع تطور مفهوم الجماعة والمجتمع، فكان ظهور ألوان جديدة من الشعر مثل ظهور الشعر الاجتماعي الذي تأثر بجيلاد المذهب الرومانسي واهتمامه بالطبقات الدنيا في المجتمع، وشعر الكفاح السياسي، الذي تأثر بالظروف التي مرت بها الأمة العربية في القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين، وكذلك تبلور مفهوم آخر للشعر الوطني، تبعاً لتغير مفهوم القوميات الحديثة وقوا اتصال بين أجزاء الوطن المتباعدة، وكذلك مفهوم الشعر الإنساني الذي يتجاوز إطار الشاعر الفرد وما يحيط به ويوسع دائرة تبادل الأحاسيس، ويمكن أن يضاف إلى ذلك مسحة العصرية التي يضيفها البعض على الإنتاج الحديث في الشعر، فيبسط به من أبراجه العاجية إلى مشاكل الناس اليومية، ليصبح كما كان يقال عن جالك بريغر مثلاً أنه شاعر الخمر والمقهى والرصيف، وربما تمثل ذلك الاتجاه عند البعض في الحديث عن بعض اختراعات العصرية، كالطائرة والصاروخ والهبوط على القمر.... الخ «أوفى شكل تطور فني يحدث للتقصيدة سواء بالباسها الثوب العصري للموسيقى الشعرية أو بابتدائها مع الأجناس الأدبية كالقصة والمسرحية، وهي تدخلات لم تكن مألوفة في التصور القديم فيما عدا بعض المواقف القصصية في القصائد الغنائية.

أين يمكن أن نجد الانتاج الشعري للشاعر عبد الله الخليلي على خريطة هذا التصور لموضوعات الشعر في المفهومين القديم والجديد؟

إن الذي يشصف ديوان وحى العبيقرية، وهو أهم الدواوين كما أشرنا من قبل نجد موضوعات مختلفة تغطي التصور القديم أو معظم حقوله، وتشارف التصور وتلم ببعض من حقوله، وقد حرص الشاعر على أن يقسم الديوان إلى مجالات:

مثل، مجال السلوك أو التصوف، والمدح النبوي، والحكمة، والوطنيات، والملاحمة والتأمليات، والأخوانيات، والغزليات، والموشح، والمرائي، والشعر القصصي والتخميني،

وهذا التقسيم نفسه يدل على مدى الحرص، على استيفاء الديوان حفظه من المجالات الشعرية التي أُلِمَّ بها القدماء، ويعكس هذا التقسيم من ناحية أخرى ثقافة الشيخ عبد الله الخليلي الواسعة في المجالات الدينية والتاريخية والأدبية وانعكاس هذه الثقافة — بطريقة قابلة للنقاش — على صفحات الديوان، فالثقافة الدينية تنعكس على المجالين الأولين، وتظهر روحاً دينية صافية عند الشيخ الخليلي تأثر أداؤها الشعرى بتراث شعر التصوف وشعر المديح النبوي عند كبار شعراء هذا المجال بدءاً من قصيدة البردة وما حظيت به من معارضات وتشجيع على النوال والنهج، ووصولاً إلى ابن الفارض وشوقي من بعده ولا بد من ملاحظة أن شوقي يترك بصمات واضحة في الديوان وأنه موضع إعجاب من الشاعر منذ صفحات الديوان الأولى، بل حتى في اللحظات التي عاصرت مولد الموهبة عنده، حيث يقول هو في صدر الديوان: «كان أكثر ما يشينني» (عن قول الشعر) بيت حفظته عن شوقي وهو قوله:—

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة  
فقللت لا أقول، حتى أكون قادراً  
أوحكة فهو تسطيع وأوزان  
وما ذلك على الله بعزير<sup>(١٩)</sup>

وتنعكس كذلك في هذا الجزء من الديوان أنفاس العشاق من المتصوفين من أمثال رابعة العدوية وابن عربي والحلاج الذي يعلن الشاعر في موقف آخر أنه قرأ عنه مسرحية شعرية من الشعر الحديث هي مأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور<sup>(٢٠)</sup> وعندما يصفونفس الشاعر هنا من المحسنات والتكلف والسر المباشر، فإنه يمكن أن تصدر عنه غزليات صوفية رفيعة في مثل قوله في قصيدة المصلى:—

يا حبيبى أراك وسط ضميرى  
يا حبيبى جللت قدراً فاعزز  
ساقه الشوق للمنتقام فلما  
وتراءى لمعينه شيخ القصد  
ان في حضرة الحبيب مقاما  
وعزير من ذل في حضرة التقد  
تسجلى نورا به أتملى  
بمشوق اليك في الحب ذلا  
قارب الوصل، هله ما تجلى  
فدانى ولم يكذب بتملى  
ت عليها تنافوت الناس فعلا  
س لسوجه الحبيب حين أملا

(١٩) ديوان الخليلي «وعلى المقبرة» ص ٢١.

(٢٠) أنظر... «على ركاب الظهور» ص ٢٢.



وتراءت له الخيام فلما مال نحو الخيام نودى مهلا  
وسقاء الموى كؤوسا من الخمر الصفى فلك يكبد بنملى (٢١)

إن هذا النفس الشعرى الذى يجمع بين التصوف والغزل ويبحث إلى الأسلوب الجزل يمثل نمطا من الشعر الدينى المذهب عند الشيخ الخليلي ، وهو سلمه الذى يصعد عليه فيما بعد إلى شعر الغزل الخالص الذى يتخذ نفس رموز الحبيب والحمر والتواصل و يصعد بها إلى هذا المنبع من الغزل الصوفي .

يمارس الخليلي لونا آخر من الشعر الدينى أقرب إلى مقلوس التعبد ، و يمثل ذلك في نظم الأسماء الحسنى وفق سرد تاريخ الرسول ، وهو تقليد يند إلى قائمة الموضوعات التقليدية التى من كمال الشاعر الايام بها ، وتوجد نماذج لها كثيرة في تراث الشعر الدينى عامة والشعر الدينى في عمان خاصة ، ولعل من أبرز نتائجها في الجيل الذى سبق الخليلي ، شعر أبى مسلم البهلانى المشوفى سنة ١٩٢٠ م والذى خصص ديوانا (٢٢) كاملا لنظم الأسماء الحسنى بدءا بقصيدة طويلة سماها « الوادى المقدس » تقع في نحو ١٦٠٠ بيت ثم تلا ذلك بقصيدة أخرى طويلة في نفس الغرض سماها « القاموس الأسنى في أسماء الله الحسنى » تبلغ أكثر من مائتين وخمسين بيتا وتتلوها قصائد أخرى تدور حول هذا الغرض الذى يستنفذ الديوان كله ، وشعر الخليلي في هذا المجال يأتى استيفاء لهذا التقليد واستكمالاً لهذا التراث المعيد أمامه ، وهو شعر يحمل قيمة معنوية عالية باعتباره دعاء وتضرعا ، ولكنه يكتفى من الناحية الفنية بسرد الصفات وما يقابلها من أدعية :-

ارفع مقامى يا عيسى وأعله في ذات وجهك مشرقا بسنائه  
واجعل لقدرى يا كبير مكانة في الكون تكبر فيبك عن عظمائه  
واحفظ مكانى يا حفيظ من الأذى وطوارق الخدستان في غوشائه  
وربما كان لهذه الأدعية جوانب من المتعة يمكن أن نكتسبها في مناخ الإنشاد والترجم أو الأداء الجماعى ، ولكنها لا تحمل نفس الخصائص عندما تتحول إلى نص مكتوب على الورق يقرأ قراءة انفرادية أو صامتة .

أما الحديث عن السيرة النبوية فإنه يتم أحيانا في شكل سرد تاريخي في مثل قصيدة « علم النبيين » الطويلة التى تصل إلى مائة وثمانية وستين بيتا وتحمل عناوين داخلية لأسماء

(٢١) وحى المبركة ، ص ٥٠ .

(٢٢) ألفه ديوان أبى مسلم البهلانى للشاعر ناصر بن صائغ بن هدم الرواحي ، تحقيق على الجندى ناصف ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٩ م .

الغزوات ومراحل حياة الرسول ، والتقصيدة على هذا النحو تستجيب للنزعة التاريخية والتقصصية التي عرفت في شعر الخليلي من ناحية أخرى ، ولنزعة نظم العلوم التي ألقها التراث العماني من ناحية أخرى ، غير أنه حين يخرج على هذا السرد و ينتجه إلى المناجاة يخلص له النفس الشعرى ، ويمكن أن نقرأ له أمثال هذه الأبيات الجميلة (٢٣) :

يا رسول الهدى سلاما كأنفاسك إذا أنت للحياة ازدهاء  
من فؤاد كأنه الطائر الموثق في الفخ عزمه النجاء  
كلها داعب السيم جناحيه هوت بإضطرابه الأهواء  
أو كخبط من السمال على علياء غصن تهوى به النكباء  
غرة في علاء ما غرر الريشة في الأفق أنه الارتقاء  
فهوت مرة وطارت مرارا واختفت فهي خفة وخفاء  
أو غرور الفراش في لمب النار إذا النار ينتهبها الصلاء  
نزق الحب هاجس طالما طناشت لديه العقول والمعتلاء  
إن قافية المزمرة في بحر الخفيف والتي عرفت منها قصائد كثيرة ، مثل :-

كيف يرقى رقيبك الأنبياء يسامىء ماطسا ولثبا ساء  
هذه المزمرة تكتسب مرة أخرى مع الشيخ الخليلي نفسا جديدا من خلال منج في الأداء لا يعتمد على السرد بقدر ما يعتمد على التصوير الموحى ، واللقطات المتتابعة التي تخدم هدفا واحدا كما حدث مع اضطراب القلب المحب من خلال الطائر الذي علق بالشراك (وهي صورة مألوفة في التراث الشعري) والخيط بأعلى غصن مهتر ، والفراشة تقترب من النار ، وتلك كلها صور تشفى عند الاقتراب منها عن قدرة شعرية حقيقية ، تجعل إسهام الشيخ الخليلي في مجال الشعر الديني يتجاوز ترسم الأثر إلى الإسهام الحقيقي والإضافة .

إن بعض الأغراض الأخرى التي جاءت في شعر الخليلي ، يميل جانب منها إلى هذه الموضوعات التي أصبحت « تاريخية » مثل الإجابة الشعرية على الأسئلة ، ونظم المسائل والألغاز ، والمراسلات الأخوانية التي تدور في هذا الإطار ، وهي مراسلات يتلى بها تاريخ

(٢٣) وهي المزمرة ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

الشعر العماني خاصة (٢٤) و يساهم فيها الفقهاء وأهل العلم إلى جانب الشعراء ، وهناك جانب آخر من الأغراض التي طرقها الشيخ الخليلي يندرج في ترويض القول « وإثبات العلاقة الدائمة المتجددة بالتراث ، وإثبات المقدرة الشعرية وهي ظاهرة أشرنا من قبل إليها عند الحديث عن « المقصودة » ، ويمكن أن يندرج في هذه الظاهرة كثير من شعر المعارضات ، والتخميس ، والموشحات ، وجانب كبير من شعر الحكمة ، ولا شك أن التطور المعاصر لمفهوم الشعر وأغراضه أحدث تحويرات كثيرة في هذه الموضوعات مع المحافظة على قيمتها التاريخية على الأقل في تزويد الشاعر بثقافة ضرورية عن تاريخ الفن الذي ينتمي إليه وعن الوسائل التي كان يتبعها سابقوه لايصال النعمة والفائدة إلى معاصريهم حسب ذوق العصر ، وإمكانية الأفادة من هذه الوسائل في التأثير في ذوق عصر جديد .

على أن هناك غرضين يمكن التوقف أمامهما قليلا لما يثلاثان من أهمية في شعر الشيخ عبد الله الخليلي ، أولهما شعر الغزل وقد حظي هذا الجانب بدراسة علمية مفصلة قدمتها الدكتورة نورية الرومي (٢٥) واستعرضت فيها جانبا هاما من شعر الخليلي ممثلا في قصائده الغزلية ووقفت أمام ظواهرها الفنية وطرائق التعبير فيها وملاحظ المحبوب المتحدث عنه ورأت أن « المرأة التي يتغزل فيها ، لا يوحى غزله بأنها امرأة محددة ، بل يعطينا صورة لامرأة عامة ، فهو مثلا لا يصريح باسمها أو يحددده ... كما أنه حين يصور جمالها ... يحشد ألفاظ الصفات الجمالية العامة حشدا ، بحيث لا يعطينا من ورائها إلا الإحساس بالجمال العام فقط ، ويستعين لوصفها بصفات المرأة الموسومة في الشعر العربي القديم معتمدا على محصوله اللغوي وثقافته بالتراث الشعري » (٢٦) ولأن هذه الدراسة غطت كثيرا من الجوانب المتعلقة بالغزل عند الخليلي ، فنحن نحيل القارئ إليها ، ونكتفي هنا فقط إلى الإشارة بأن شعر الغزل كان يتم اللجوء إليه إستكمالاً لإثبات قدرة الشاعر على محاكاة النموذج القديم في فنونه المختلفة ، ولا ننسى أن « المحاكاة » نفسها كانت مبدأ هاما لجأت إليه الآداب المختلفة وخاصة في مراحل إحيائها فالآداب الأوروبية في عصر الكلاسيكية كانت تلجأ إلى محاكاة الأديبين الروماني والاعريقي باعتبارهما النموذج الأمثل ، وعلى أسس من هذه المحاكاة قامت النهضة الأدبية الحديثة في أوروبا ، (٢٧) وكذلك كان الشأن في بداية نهضة الشعر العربي في العصر الحديث في القرن الماضي حيث مر بمراحل من المحاكاة أو التقليد يتحدث

(٢٤) انظر تراجم كثيرة في كتاب : شقائق النعمان على سبوط الجمان في أسماء وشعراء عمان ، محمد بن راشد بن عز الحسبي - وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ، ١٩٨٤ م .

(٢٥) ظواهر فنية في غزل عبد الله الخليلي ، دراسة بقلم د . نوريه الرومي قسم اللغة العربية - جامعة الكويت - مجلة البيان الكويتية ، العدد ٢١٩٦ ، مارس ١٩٨٤ م .

(٢٦) التجميع السابق ص ٢٩ .

(٢٧) انظر : الأدب المقارن د . محمد غنيس هلال ، ص ١٧٤ وما بعدها ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٧ م .

عنها العقاد عند الحديث عن محمود سامي البارودي حين يقول : « في الابتكار من دور الركود والجمود في الشعر إلى دور النهضة والأجادة أربع مراحل .... أولها دور التقليد الضعيف ، أو التقليد للتقليد ، وثانيها ، دور التقليد المحكم أو التقليد الذي للمقلد فيه شيء من الفضل ، وشيء من القدرة ، وثالثها ، الابتكار الناشئ من شعور بالحريّة القومية ، ورابعها الابتكار الناشئ من استقلال الشخصية أو من شعور بالحريّة الفردية » (٢٨) .

والواقع أن غزليات الشيخ الخليلي ، يمكن أن تقع في المستوى الثاني من المستويات التي أشار إليها العقاد ، وإذا كان كثير من الشعر الجيد في هذه الفترة ، يمكن أن يقع في هذا المستوى ، فإن غزليات الشيخ الخليلي تحتاج إلى إشارة من زاوية أخرى ، فهو إلى جانب كونه شاعرا ، فهو فقيه وقاضي وينتمي إلى أسرة ذات عراقية دينية ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يدع غزليات قد تكون غير متوقعة لدى القارئ المعاصر الذي لم يطلع على الثقافة القديمة ويعرف كيف كان إسهام الفقهاء أنفسهم في صياغة « الكلام الجميل » فنيا دون تخرج من بعض دلالاته المباشرة والتي قد يقف عندها من ليس عنده بصير كاف بمذاهب القول ، ورموز الغزل والشراب كانت شائعة في شعر التصوف الإسلامي ، وإسهامات فقيه جليل مثل ابن حزم الظاهري في كتاب « الحب » من خلال كتابه « طوق الحمامة في الإلف والألف » ذات شهرة خاصة في هذا المجال .

في هذا الإطار تخرج غزليات للشيخ الخليلي ، بعضها يشف عن الثقافة الدينية بوضوح في مثل قوله في قصيدة « الحبيب المتقلب » :-

يا حبيباً كلما قلت دنا	دنت الساعة وانشق القمر
وإذا باعدت أوقلت ابتمد	عن سبيلتي ، قيل : سحر مستمر
ولكم أنذرتني ما يستحي	فتعاميت ، ولم تغن الشذر
هكذا الحب ، قبل من زاجر	يصنع القلب ، وهل من مزاجر
يا جدي لنؤذي أنه	بات مغلوباً عليه فاتصر
يا قلبى لا يروك الموى	أنه يجرى بأمر قد قدر

وواضح تأثير فواصل سورة التمر في القرآن الكريم على قوافي الأبيات التي يتحرك المعنى تبعاً لها ، وتستلزم اهتمام القارئ كله ، لكننا في مواقف أخرى يمكن أن نجد عند الشيخ صورا تتشرب من صور الحب العذري ، الذي عرفه الشعر العربي في العصرين الأموي والعباسي ،

(٢٨) عباس محمود العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم في الجليل القاصر ، ص ١٩ - كتاب الغلاب ، ١٩٧٢ .

وأخذت ثلثة مشهورة من شعرائه مثل قيس بن الملوخ وكثير عزة تقدم نماذج يحتذى الشعراء في المعصور التالية حتى وإن لم يرا بتجربة الحب العذرى ومن هذا التصور نجد عند الشيخ الخليلي نماذج مثل قوله :-

شتيق الهوى إن كنت لا تشقى الهوى	فأنسى أخشى أن نصاب على عمد
هلم بنا نكس رويداً لعلنا	نصادف أثناء السرى منية القصد
نداجى الهوى حتى يلين قياده	فنشكو إليه ما نعانیه من جهد
شقيق غرامى أننا توأما هوى	رضعنا لبان الحب شهدا على شهد
نروح ونغدو حيث لبسنا وقبيلها	جباري بلا وعى تشاوى بلا رشد

وعلى هذا النحو يفيض النص ، وتمضى نصوص أخرى عند الشيخ الخليلي ، يمكن أن تنسب بسهولة إلى تقليد نماذج شعر الغزل العذرى ، لكن الشيخ يدرك أن الغزل العذرى لا يمثل كل تراث الغزلين من الشعراء ، وأن هناك غطا آخر لا يقل تألقا وشهرة ، وهو الغزل الحسى وغزل المغامرات الذى تتألق فيه نماذج امرئ القيس فى القديم ، وعمر بن أبى ربيعة ، ويشع حوله شعرتقاليد الفتوة والبادية ، ومن ثم فهو بهم بدوره فى هذا المجال فى نصوص يبدو فيها الغزل الحسى واضحا فى مثل قوله من قصيدة بعنوان : « من قصص الماضى » - وقد حرص الشاعر على أن يضعها فى باب الشعر القصصى لا فى باب الغزليات (٢٩) :-

تتوكل وقد زرتنا مرة	ولأنس من بيننا مروح
يكاد السرور يطير السرير	من تحتنا والهوى يسطح
ويلثمننا الحب عن وردة	يضوع بها الرأذ تنفخ
ويرشفتنا عن رحيق اللوى	على مبسم بالرشا يطلح
حبيب تنام فوق السرير	بحديق فى الأفق لا يبرح
هناك وقد شعشت خرة العنا	ق وطير المننا يصطح
رصاب هو الأرى لكنته	يحج المعادة إذ يسطح
حببان لنفسها الوصل فى	خلالته والشذا يمتح

إن أمثال هذه النماذج عندما تعود إلى مصادرها الأصلية فى التراث ، نجد تفسيراً أوضح ، لتجميعها وتناقضها أحيانا فى ديوان عصرى كديوان الشيخ الخليلي وإذا كانت بعض القصائد

(٢٩) دهر المشرية ، ص ٤١٦ .

الغزلية عند الشيخ الخليلي تأخذ عناوين عصرية مثل « سمرات النيل » و « بين العبد والمدرسة » فإن المعالجة لا تجعلها تفتقر كثيرا عن النماذج التي أشرنا إليها .

أما مجال الوطنية عند شاعرنا فهو يكتب بعدين ، يمثل واحد منها المفهوم القديم في شعر الانتساب إلى أرض وقبيلة ، وهو ما كان يمثل غالبا في شعر الفخر ، وهو يبدأ عنده من درجات الفخر الشخصي الذي كان مألوفا عند القدماء في مثل قوله :-

لقد ضللت نفسي عن مظنة سييء      وجشمتها مالمو تحملي خيرا  
فقيمت ولي من نثر العقل صاحب      وعدت وعيبي ماتعاين قيصرا  
أروم بشفسي همة لا ببرومها      عدائي ولو كانوا على الموت أصبرا

ويبدو هذا الفخر معتدلا إذا قيس بنماذج أخرى في التراث العماني نفسه لعل أبرزها في هذا السياق ، فخريات سليمان بن مظفر التيهاني التي تتناثر في مواطن كثيرة من ديوانه (٣٠) ، بل إن فخريات بعض المعاصرين من الشعراء العمانيين الذين يكتبون على النمط القديم تنسم بكثير من روح المبالغة إذا قيس بما يكتبه الشيخ الخليلي .

على أن هذه الفخريات عنده تتجاوز كثيرا الحديث عن الذات إلى الحديث عن الأهل والوطن ، فيجس على لسانه قصائده مثل « عمان في أحسن السلوك » أو « عمان في سجل الدهر » والأخيرة أعطاها هو عنوان ملحمة تاريخية ، وساقها في نحو ثلاثمائة بيت على قافية واحدة ومن بحر واحد وقسمها إلى عناوين داخلية للعصور المتتالية التي مرت على عمان منذ عهد الجاهلية حتى الآن وسمى الملوك والأمراء وحدد المواقف وأشفع الرد بتعليق شعري في المواقف المختلفة ، ووضح أنه تأثر بأحمد شوقي في قصائده التاريخية التي كان لها رنينها في النصف الأول من هذا القرن ، لكن الواقع أن قصائد شوقي ، وقصائد الشيخ الخليلي أقرب إلى الشعر التاريخي أو إلى نظم التاريخ منها إلى الملحمة بمعناها الفني الذي تعهده الآداب المختلفة منذ عصور بعيدة (٣١) .

(٣٠) انظر: ديوان التيهاني ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلسلة عمان ، ١٩٨٠ .

(٣١) يعرف القاد الملحمة بأنها قصة شعرية موضوعها وقائع الأحداث الوطنية المحيية التي تروى من ألسنة الأبطال وما به سموها عن الناس ، ويصدر القصة وتصبح في الخيال فيها دورا كبيراً ، إذ تحكي على شكل معجزات ما قام به هؤلاء الأبطال وما به سموها عن الناس ، ويصدر القصة وتصبح في الملحمة ، فالخوارق تتوالى متصلة مع التطورات النفسية التي يستلزمها الأحداث ، ولكن ملحمة أسد تاريخ صدرت عنه بعد أن حيرت شعر بشايق وهو أحياناً في الملحمة ، وهي ملحمة تشعب بعشرين الحلقة والتاريخ بها يسيرة أن تحدث فوارق الأحداث وأن يتراعى الأسس وأن تكون أو لا تكون :  
انظر : د . محمد عيسى هلال ، أشد الأدبي الحديث ، ص ٩٠ ، دار النهضة مصر ، ١٩٧٧ .

على أن هناك بعداً آخر قى وطنيات الشيخ الخليلي يتمثل في توسيع مجال الحديث عن الوطن، ليشمل الوطن العربي كله، وهو اتجاه تأصل عند كثير من الشعراء العمانيين المعاصرين للشيخ الخليلي، من أمثال السيد هلال بن بدر البوسعيدى (٣٢)، وكذلك الأستاذ عبد الله الطائي الذي كانت له تجربة اتصال واسعة، مع كثير من البلاد العربية، وأثر هذا على أدبه الشعري والقصص (٣٣)، وفي هذا الأطار تجيء قصائد الشيخ عبد الله الخليلي تحتد مواطن الاستلهام والتعاطف فيها إلى أجزاء مختلفة من الوطن العربي، سواء تمثل هذا التعاطف في المؤازرة في اللحظات الدقيقة أوفى الإشادة بالماضي الحضاري التليد، أو الحاضر الذي تفر له العين، وهو عندما يكون في مصر يجس أنهُ لم يفترب عن وطنه رغم أن الدار تأت به، و يقول غامطيا مصر:-

رفقتا بنائى الدار يا مصر      ان لم يسكن لك عنده إصر  
وطن المعروبة أنت لى وطنى      أنسى انجبهت وأنت لى مصر  
إن أنا عن وطنى إلبك فلا      ألم لسنرقئته ولاضر (٣٤)

وعندما يزور الشام يروده جمال لبنان وبهجته، وسحر طبيعته التي تستهش قوى الفن والعاطفة، فيسترجع بها ومعها خطاط الطرب في غزونه الثقافي :-

أنثر بساط الريح فوق الريح خططا مستقيا  
وانزل على لبنان من فوق الجليل هدى كرميا  
انشده من أوتار معبد غنوة حتى يهيا  
واستخف ما بين النصوص ودأب بالزهور الكلوما  
وارفع عقيرة شاعر تحذ الخيال له قديما  
راعته من لبنان بهجته وقد فاضت شميا (٣٥)

(٣٢) انظر ديوان السيد هلال بن بدر البوسعيدى، تحقيق محمد عل الصليبي، حيث خصص باب في الديوان سمي باب «استهائش الغمم وشعة المزاج وحسب الوطن» وفيه قصائد عن مصر والعراق وفلسطين، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٩ م.

(٣٣) أنظر، نعتنا لنا بعنوان: «عبد الله الطائي وآفاق الشعر العماني المعاصر»، مجلة «دراسات عربية وإسلامية»، القاهرة، ١٩٨٩ م العدد ٩.

(٣٤) وحى المبتربة، ١٩٥٠.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

وكذلك كان شأنه مع الجزائر التي غنى لها أغنية من وحي كفاحها (٣٦) ، وكذلك تونس التي كتب عنها قصيدة بعنوان من وحي تونس (٣٧) .

والخلاصة بهذه المثابة يؤكد اختياره لموضوعات قصائده الوطنية ، ومعالجته لها محور القضية التي يدور حولها حديث التطور عنده ، من أنه يمتد جذوره إلى أعماق التراث ، و ينسج على منوال موضوعاته التقليدية ، فخرا بالذات أوبالجمالية المحببة ، ثم يحاول تعميق هذا الانجذاب من خلال وطنيات القصيدة التاريخية ، ثم يحاول أن يوسع الدائرة فجاء بما مع مفهوم القصيدة الحديثة للوطنيات ، فيمتد بها إلى إطار العالم الواسع من حوله .

إن هذه السمة الثنائية التي لاحظناها في مناج ميلاد القصيدة وفي مستويات لغتها المتفاوتة وفي موضوعاتها المختلفة . تساندها ظواهر مماثلة في شكل القصيدة الموسيقى ، وشكل الوحدة التي ينتظم أطوارها الخارجي أولا ينتظم ، وفي كون الصور التي يتم اللجوء إليها بين صور جزئية متفرقة على الطريقة التي شاعت قديما ، أو الصورة الكلية التامة على الطريقة التي تستريح لها القصيدة الحديثة ، ثم في شكل وسائل التزيين والنوشية ، والتي يتم فيها أحيانا اللجوء إلى وسائل قديمة مثل التآريخ بالشعر والمحسنات البديعية بألوانها المختلفة ، واللجوء إلى التكرار في مطالع الأبيات الثنائية ، وهي ظاهرة يفرط فيها الشيخ الخليلي في بعض الأحيان .

فن المؤلف أن نجد في مراحل شعره المتقدمة هذا النوع من تعمد الجناس في مثل قوله :-

وساقه الحلب إلى حبه      وساقه لكنى إلى الشحب  
وبسره ماقد تبنى له      فعززه الصاحب يساجنب  
أو إلى التورية التي تشيع في شعر الفقهاء والنحاة في مثل قوله :-

ياسبيدى عبيدك في ذلة      يدعوك بين الخنفس والخنصب  
أو أن ينسج بيتا يلاحظ فيه القيمة العددية للحروف وهو ما يعرف بالتآريخ بالشعر في مثل قوله مؤرخا لعدد جيش المسلمين في غزوة بدر :-

في جيش بدر وهو عدد حروفه      نزل السقضاء لكل غاوا يصرع  
فكلمة (جيش) من الناحية العددية تتكون من حرف الجيم وقيمه ٣ وحرف الياء وقيمه ١٠ وحرف الشين وقيمه ٣٠٠ ، فيكون المجموع ٣١٣ وهو عدد المسلمين في بدر .

(٣٦) المرجع السابق ص ٢٧٢ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٢٨٩ .



أو أن نجد الشكرار في مطالع الأبيات المتتالية لجملة معينة ، مثل تكراره لكلمة « ان كان حب الغامشي » إحدى عشر مرة متتالية ، وهو نيج يتلاءم مع القصيدة المسموعة والمنناة أكثر من تلاؤمه مع القصيدة المقروءة ، وكذلك تكراره لكلمة « هي الملة » عشر مرات متتالية في قصيدة « إلى رجال الاستقامة » وهي قصيدة تشيع فيها هذه الظاهرة (٣٧) ، حيث نجد أيضا جملا مثل « أولى الحق » و « خلبى » و « أفى الدين » وغيرها تنصدر أبياتا كثيرة متتالية .

ولا يعدم القارىء أيضا هذه الروح القديمة « توجيه الخطاب » سواء تمثلت في ذلك التوجيه الوعظي الذى يتخاطب السامع فيجذب انتباهه في بدء القصيدة ويستخلص النتائج في نهايتها ، أو في لون من ذلك التقليد الغزلي في مثل قوله :

معمّر ينسى باللسوم فيا أرومه      لك السويل ما أنك عنى وأتأنى  
سلى همى والسيف والدرع والقنا      فسا كان أدرها بحالى وأدرانى  
سلى الدين والدنيا ، سلى الحكم والتقى      سلى الشرف الأسى العادى الشانى (٣٨)

فالمقطع كله بصيغة ومعتواه ينتمى إلى الروح القديمة التى تشيع في النصوص التراثية والتى يمزج الفخر بالقيم المادية والروحية بالخطاب الموجه إلى اللائمة ، والذى يشي براونج الرقة على هامش الفروسية ، غير أن هذا المنهج — كما أشرنا من قبل — يأخذ أحيانا شكل الوعظ المباشر ، وخاصة في القصائد الوعظية والفقهية ، وفي لحظات البدء والختام في مثل قوله (٣٩) : —

والناس أما سيد أو موقرة      فانظر لنفسك ما الذى تشخير  
عمل يز ينك أويشيتك فى الورى      وكلاهما مما تبسبت تدبر  
والسك يرجع ما فعلت حقيقة      فاختر لنفسك ما تراه بمصدر

هذه الظواهر التى تنتمى في مجملها إلى الروح القديمة في بناء القصيدة ، يتم تطورها في جانب كبير من الانتاج في الفترات اللاحقة ، فيأتى البناء اللغوى أكثر تركيزا على « الفحوى » منه على الشكل ، مع عدم اهمال لذلك الشكل ، ومن هذا المنطلق ، تحتفى ظواهر المحسنات المتعمدة ، والشعر التاريخي ، والخطاب المباشر ، أو على الأقل تحتفى ألوانه الصارخة في الفترات الأخيرة من الانتاج .

(٣٧) نظره وحى العفربة ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣٨) الترميز السابق ، ص ١٢١ .

(٣٩) الترميز السابق ، ص ٩٣ .

ولعل أوضح مظاهر الشنائية في هذه القضايا ، هو موقف الشيخ الخليلي من قضية شعر التفعيلية على المستوى النظري والتطبيقي ، وقد فصلنا هذا الموقف في دراسة أخرى في مقدمة ديوان على ركاب الجمهور الذي كتبه من الشعر الحديث ، شعر التفعيلية ، وجاء في صورة شعر قصصي (١٠) .

أما مجال وحدة القصيدة ، فع أن الخط السائد في ديوان وحى البقرية إلى اللجوء إلى تنوع الموضوعات في القصيدة (١١) الواحدة وتصدير القصيدة بالمقدمة الغزلية ، فإن جنوح الشيخ الخليلي المبكر إلى الشعر القصصي والشعر التاريخي واكبه جنوح إلى وحدة القصيدة من خلال أطوارها الخارجى ، وقد أنهى في ديوانه الأخير ، إلى صياغة قصص شعرية يتكون كل منها من مجموعة من اللوحات المتناسكة ، لكنه كان ينجح في القصص أحيانا إلى إيراد قصص جانبية على طريقة القصص العربي القديم في كلفة ودمنة ، وألف ليلة وليلة .

وبرغم أن الشيخ الخليلي بذل خطوات طيبة في الاقتراب من القارىء المعاصر ، فإنه كان يوحى أحيانا من خلال الأداء الرمزي أن هناك حواجز ما تزال قائمة بينه وبين متلقيه ، وفي هذا الإطار يمكن أن نتلقى هذه النفثة الهادئة التي صاغها تحت عنوان ذات الخمار بن والتي تعبر عن جانب من أزمة التواصل (١٢) .

أتلهىنى الحسنة وهي مغبطة	وأرض حياة الوعد فتعنا بتترقر
وتأخذ من عرض وجاهى لسانها	كأن لم أكن بين الورى فوق منبر
وتنشط في وجاهى بكل بساطة	كأنى من بعض الفشات القمر
وتشحك بى هزؤا ومالى مذمة	ولكن دهرنا أن رأى الفضل ينكر
وتعثر المعروف منى تنكرا	وتشتقص العرض الكريم وتزدري
وتعرض إعراض الخزال تجنبنا	وتفتك بى فتك القضاء المقدر
وتشتارنى أربا وأشعارها أذى	وتشركنى كالحاسر المستحيز

(١٠) على ركاب الجمهور (مراجع سابق) المقدمة .

(١١) انظر على سبيل المثال : قصيدة « إلى رجل الأسطوانة » ص ١٠٦ من « وحى البقرية » حيث تمتد القصيدة على مدى ١٤ بيتا ، منعقدة من المدح إلى النحر إلى النصيح إلى التأمل في حال الأمة ، إلى الإشارة إلى بعض صفحات الناضى واستخلاص الحق منها ..

(١٢) وحى البقرية ، ص ١٨٧ .

أن هذه النفقة العاطفية التي تلبس ثوب الغزل ، تبدو وكأنها نفقة فنية تشكو أزمة التواصل بين الشاعر وقارئه ، ولعل الأحساس بيلاد هذه الأزمة ، هو الذي جعل جانباً كبيراً من نتاج الشيخ الخليلى في الفترة الأخيرة ، يسمى نحو المعاصرة ، سيرا على ركاب الجمهور ، أو تحقيقاً للشعور الفني المنشود ، وهذا كله جعل من شعره نموذجاً طيباً لدراسة ظاهرة معاصرة الجيلين في الشعر الخليجي الحديث .

## ملاحح الشاعر برشة القصاص

في رواية قشتمر لنجيب محفوظ

### د. إخلاص فخري \*

اعتاد الأستاذ نجيب أن يقدم لنا شخصيات بعض المثقفين خلال قصصه العديدة، كتابا وصحافيين وقناذج من المشتغلين بالفن، لكنها المرة الأولى فيما أعلن، التي يقدم فيها شخصية شاعر، وذلك ضمن شخصيات قشتمر. أقبلت على الرواية بشغف كبير، فالشعر هو مجال اهتمامي الأول إبداعا ودراسة، ومن المثلوق لي أن أرى شخصية الشاعر حين تحدد ملاحظها وتضع خطوطها ريشة روائي كبير، ولا شك أن في ذلك كسبا للشعر والشعراء، كما أنه كسب للرواية والروائيين، فن المثير للاهتمام حقا، أن نتعرف على نظرة الروائي للشاعر ولإبداعه. والشاعر بصغة خاصة — ربما أكثر من بقية المبدعين لأجناس الأدب الأخرى — تحيطه هالة من التقدير والإعجاب، كما ينظر إليه من زوايا مختلفة، ليس فقط لنوع إبداعه، ولكن لسلوكه اليومي وحياته العامة وحتى لغته وردود أفعاله تجاه الأحداث، إنه بإيجاز: يختلف عن الآخرين، و يقر له الآخرون بهذا الاختلاف ويتوقعونه.

أقبلت على «قشتمر» وكل ذلك يطوف بذهني، وقرأتها مرات، محاولة الربط بين أول كلمة وبقية الكلمات حتى النهاية، في إتمام وشمول وانتباه لكل العلاقات بين الأشخاص والأحداث والظروف، لقد اعتدنا أن ننسب أعمال الكاتب الكبير إلى ذلك الأدب الذي يحتاج إلى جهد وعناية في قراءته، يواز يان أويقتر بان من جهد الأديب في كتابته. وأنا لا أسمى إلى تقديم دراسة كاملة للرواية، فذلك أكبر من طاقتي، وإنما أكتفي بعدة ملاحظات عامة، ثم أفرغ لدراسة شخصية «طاهر»

١ — قشتمر هي أول إنتاج ينشر في كتاب للأستاذ نجيب بعد فوزه بنوبل، وهي رواية قصصيرة من حيث الحجم، لأنها تقع في مائة وسبع وأربعين صفحة من القطع الصغير، ولكنها

\* — مدرس الأدب الحديث بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا.

قصة قصيرة طويلة من حيث النوع ، لأنها تقدم قطاعاً طويلاً من الحياة ، ينقل إلينا التجربة عبر مجموعة متتابعة من اللحظات الزمنية والنفسية ، تمضي كلها في اتجاه واحد — للأمام — سواء بالأحداث أو بالمواقف ، ويشبهها الناقد الكبير المرحوم أنور المعداوي بالمجرى « الرئيسى للنهر حين يتدفق إلى الأمام وحده بغير روافد ، بغير تلك القطاعات العرضية التي تصب في المجرى وتكسفه ، وتضاعف من قدرته على التدفق »<sup>(١)</sup> وتلفتنا للوهلة الأولى كثرة الأخطاء اللغوية والتعبيرية المتناثرة عبر الصفحات ، ومن الطبيعي أن الكاتب في لحظات الإبداع يكون مشغولاً بالفكرة والحديث والشكيك الفني ، فتند عن قلمه هفوات ، ولكن من الطبيعي أيضاً — ومن المفروض — أن يقرأ عمله متكاملًا ليخلصه من الشوائب

٢ — تبدو القصة باهتة ، بلا ملامح أو سمات خاصة ، والشخصيات متشابهة إلى درجة يصعب معها التمييز بين الشاعر المثقف ، والمهامي الناجح ، والشاب العايب ، والخردواتى الذى انصرف إلى جمع المال مكتفياً بالصحيفة أحياناً ، وكذا يمثل أسلوبها من ذلك التوهج والتألق وحيوية الحوار الذى ألفناه من أدبنا ، وخاصة في الأعمال المتعددة الشخصيات « كثرثرة على السبيل » إن القصة تصور قطاعاً من الناس أو المجتمع تصويراً فوتوغرافياً ، يكتفى بالسطح الظاهر فقط ، ولا شك أن الكاتب كان يوسعه أن يوظف هذا التصوير اجتماعياً ، فيحرك لدى قارئه شعوراً معيناً ، فيما لو خلع عليه بعض الحرارة وبعض النبض ، ولم يعرضه بهذا الحياء التام ، فيفتقدنا أى حماس مع أوضد ، لو أعمل فيه قلمه فانتقى واختار ، حذف وأضاف .

ألسنا نقرأ لكى نرى عمالاً يتسم بالنظام والاستقرار ؟ وإذا اختار القاص أن يقدم القوضى والاضطراب ، فإن ذلك يتم لهدف فنى وبرؤية خاصة ، غير أننا نفتقد ذلك الهدف ، ولا نتمر على تلك الرؤية في قشعر .

٣ — وقد ندهش للموقف الذى نخرج به من القصة ، هذا الخوف والتوجس الذى يغلف آراء الأبطال ، حتى ليتخرجون عن نصيح أحدهم والاعتراض عليه حين يقدم على تكرار الخطأ « وغلب علينا الفتور لحرصنا الأكيد على سعادته وتمنيينا أن تكذب الظنون » ص ١١٦ ولم يوافق أحد منا على أسلوبه ، ولكننا نجبتا تكدير صفوه بمعارضتنا ص ١٢٢ وهذا الحياء والتوجس من التصريح برأى أو انتباه واضح هو السبب في عدم ورود أية إشارة بالرفض أو القبول عن فلسطين أو الجزائر أو اليمن أو لبنان ، ولا أقول عن كمبوديا أو فيتنام .

أليس عجباً أن يجتمع خمسة من الأصدقاء ، تربطهم علاقة وثيقة من الطفولة إلى الهرم ، ويتدرجون في التعليم من الثانوية إلى اليسانس ، وهم مثقفون يقرأون في نهم وفي شتى مجالات

١ — كلمات في الأدب ص ١١٥ .

الشفافة ، كل ذلك .. ثم لا يرد على لسان أحدهم تعليق أو رأى حول حدث أو خبر ، مما يدور في العالم ، أقصد خارج مصر . أما في داخل مصر فقد حرص المؤلف حرصاً شديداً على ألا يقدم رؤية معينة أو وجهة نظر واضحة عن السياسة أو نظام الحكم ، عن الحب أو العمل أو المال والثقافة .. لا يقول شيئاً عن أى شيء ، لأنه جمع بين التناقضات ، فألقى بقراره في مهامه الحيرة والشردد ، مدح الملكية وذمها ، وأعجب بالثورة ثم لعنها ، أشاد بالزعما حيناً ونال منهم حيناً آخر ، فرج بالنصر ثم قلل من شأنه .

وقد يقال في تبرير ذلك أن الاستاذ نجيب أراد تصوير الحالة التي كان عليها المجتمع عقب الشكسة ، حالة الشك والحيرة والبلبلة ، حالة اللا سلام واللا حرب ، الجمود العاجز اليأس ، وكنا أيامها بالقفل ، تنتقل بين الرأى وضده في اليوم الواحد — أفراداً وجماعات — إلا قلة محدودة ظلت على يقينها وقتها ، فإذا كانت تلك حالة المجتمع عقب الهزيمة ، فإذا عنه قبلها ؟ قبل الثورة وأثناءها ، وكذلك بعد وقوع الحرب ، وانتشاع النعمة بالنصر ؟ وإذا كان ذلك التخييل حادثاً في مجال السياسة والمجتمع ، فإذا عما هو حادث على المستوى الفردى ؟

وربما قيل إن المؤلف من حقه أن يورد آراء متعارضة ، حين يقدم عدة شخصيات متنوعة مختلفة ، ولكن أليس من حق القارئ أن يجد رأياً غالباً أو موقفاً واضحاً ؟ وهل يحفظ الأديب — إذا التزم الحياد التام — بإعجاب متلقية وجاذبية أدبه وحرارته ؟ ..

٤ — و يلفتنا في « قشتمر » أن الكاتب يلجأ إلى تبرير الفشل بالتقدير وسوء الحظ : إن صادق صفوان يتزوج ثلاث مرات و يفشل في الجميع و يعزل المؤلف ذلك بسوء الحظ ، فإذا تغاضينا عن الزيجة الأولى لأن الزوجة مرضت فأين سوء الحظ في الثانية والثالثة ؟ .. انه سوء الاختيار الرجوع إلى نظرة المؤلف وأبطاله للمرأة : فهو يصورها بصورة تقليدية محنة ، ليس لديها ماتيه للرجل سوى الجمال الشكلي والشباب سواء كان زوجاً عادياً أو حبيباً — جاهلاً أو مثقفاً — وحتى عندما قدم كاتبنا نماذج للمرأة العاملة أو المثقفة من مرضية ومدرسة وشاعرة ناقدة ، فإنه لم يكل رسم الصورة ولا أجاد تحديد ملامح الشخصية ، وانتهت تلك النماذج إلى المصير العادي للمرأة الجاهلة من فشل في الزواج بعد فتور النزوة التي يسميها المؤلف حبا ، فالحب عنده وعند أبطاله جاذبية جنسية يسبب الشكل الخارجي بلا أى بعد روحى أو فكري .

ولئن كان تعاظم التقدرات وشرب الخمر والمغامرات الجنسية قد أصبحت من التوابت عند أديبنا الكبير ، فإنها تبدو في « قشتمر » لدى « حادة » غير مبررة ولا مقبولة . لم يكن في نشأته ما يدفعه لهذا الطريق الذى سار فيه ، إن الفشل في الدراسة والشراء المتعاقب ليسا كافيين لتبرير هذا السلوك ، خاصة وأنه كان ذا ميل ثقافية ونهم للقراءة ، وأسرته متماسكة إلى حد كبير ، لكن المؤلف يسوق انحرافه على أنه قضاء وقدر ولم يحاول تحليله أو تعليقه أو إلقاء أى لوم عليه .

٥- ونحن في « قشتمر » نلتقي بالنتائج التي لم تسبقها أية مقدمات يمكن أن تمهد لها أو تشي بها ، أقصد وجود تضارب وتعارض بين المواقف ، فرغم الذكاء الياى على طاهر منذ الطفولة الباكرة من إقبال على القراءة وسرعة تعلم الفرنسية وحب المحفوظات ، نفاجاً بأنه لولا اسم والده الياشا لرسب في امتحان القبول للابتدائي .

ورغم الدكتوراه من النسا عند الأب ، والثقافة الواسعة والاطلاع على الأدب الفرنسي لدى الأم - ورغم ذلك - فانتنا نجد هذا التمتع الغريب في الوقوف أمام موهبة الابن وميله للشعر والأدب ، والاصرار المعجيب من الأب على ادخاله الطب رغم مجموعه الضعيف في البكالوريا .

٦- وفي « قشتمر » قد نطلق المؤلف أحياناً حكماً أو صفة لا توافق موصوفها إذا راجعنا سجل حياته : مثل قوله عن والد طاهر في مرضه « يطوى الفصل الأخير من سجل حياته : الشاعرة » فأى شموخ ؟

طبيب عادي في موقع إداري لا يبدى أية عبقرية طبية ، ثم هو موظف قانع بوظيفته يطبق النظام الوظيفي بلا أى طموحات ، وهو يلتزم بالأسرة الاستقرائية من حيث العزلة عن كل نشاط اجتماعي أو سياسي ، فشل في التفاهم مع ابنه الوحيد وطرده من البيت لأنه لم يحقق حلمه في أن يكون طبيباً .... فأى شموخ يقصده المؤلف ؟ ..

٧- شخصيات القصة من النوع الذي يقال عنه : ذو المستوى الواحد (٢) أو السطحى إن الشخصية تمضى في مسار تسجيلي فتظل كما هي من الطفولة إلى الكهولة بلا أى تطور أو نمو ، نفس الآراء والمواقف ، نفس ردود الأفعال تجاه الأحداث ، بل حتى نفس الأخطاء تتكرر مرات ، كل واحد يولد و يتعلم و يعمل و يتزوج أولاً ، و ينتجب طفلاً أو طفلة أو الاثنين ، حياة روتينية عادية بلا ارتفاعات أو انخفاضات بلا صراع مع بعضها أو مع العالم الخارجي ، و بلا صراع داخلي بين المبادئ المعارضة والمواقف المتباينة ، باختصار دون تركيب أو تعقيد أو تشابك يقضى عليها حياة ونبضا ، وكذا تمضى الأحداث في مسار واحد دون رواقد تعمقها وتكشفها فتر يدها حدة وقوة .

حتى عندما تعرض الشاعر لأزمة مع والديه انتهت الأزمة في موقف واحد مناقشة حاسمة . وحين تعرض الشاب العايب « حمادة » لأزمات متنوعة لم يفد الكاتب من تلك الأزمات فيدير صراعاً نامياً أو حواراً متدفقاً . ولتعرف على شخصيات القصة بإيجاز حتى نصل لبطلنا : إنهم خمسة ، أولهم المؤلف وهو من العباسية الغربية - ألى الشعبي الفقير - ولكنه خارج الموضوع ولا يقدم لنا أية معلومات عن نفسه ، هو فقط يروى ويعتب على الأحداث والأشخاص ، ومعه من - العباسية الغربية - اثنان هما :

٢- النقد الأدبي الحديث . محمد غنيم . ص ٥٧٤ .

صادق صفوان الذى اكتشف بالبيكالوريا وافتتح محلا للخردوات ثم صار من الأغنياء ، وإسماعيل قدرى الذى كان متفوقا فى دراسته حتى البكالوريا فتوقف لموت والده وتوظف فترة ثم أكمل دراسته فى الحقوق واشتغل بالمحاماة ، والاثنان الآخران من - العباسية الشرقية - حتى المؤسسين والباشوات أوفيا حماده الحلواتى ابن صاحب أكبر مصنع للحلاوة الطحينية فى مصر ، وترك الجامعة بعد وفاة والده وحصوله على ميراث كبير أنفق منه على شهوته ومبذله ، والثانى هو « طاهر عبيد » نجل عبيد باشا الأرملاوى الذى يعمل دكتوراه من فرنسا ، وهو مدير للمعامل بوزارة الصحة ، يلوح متعاليا متباعدة - رغم أنه ليس واسع الثراء - فيشعر من حوله بالدونية ، ويأنف من العامة ، عاش حياة الموظف التقليدية حتى أحيل للتقاعد فأنشأ عبادة للتحابيل . وبعد سنوات أصيب بمرض خطير فى المثانة ، وأسلم الروح فأقيمت له جنازة كبيرة كما رثته الصحف بما يلائم منصبه السابق .

ولعل أكثر ما يمسنا فى شخصية الأب هو الجانب التربوى أو طريقة زعاية الابن وتوجيه وهنا يصادفنا العجب ، إن الأب الذى درس فى فرنسا ، وفى بيته مكتبة ضخمة تعمر بشار الفكر والأدب بالإضافة إلى المراجع العلمية ، والذى تزوج من خريجة المدارس الفرنسية ومنقطة ثقافة عالية فى شتى مجالات المعرفة ، هذا الأب يسلك مع ابنه مسلك أب متوسط الثقافة أو جاهل تماما ، لقد اتفق مع المهتم على أن يجعل من ابنها الوحيد ( لا عبيرة بأخته ) شخصا رفيع المقام ، وحصر رفعة المقام فى أن يكون طبيب مصر الأول .

وهو يلاحظ حب ولده للشعر وحفظه ، وطلب من أمه أن تشرح له ما يصادفه من أبيات فى المجلات فيملق قائلا : الولد ذكى وسيكون طبيبا مدهشا ص ١٢ وحين يتقدم الابن فى تعلم الفرنسية ويبدأ أولى محاولات النظم ، يفرح الباشا بذلك وبعده ذكاء مدغرا للطلب . وحين تنشر أولى قصائده فى مجلة شهيرة يقول الأب فى امتعاض :

هذا شغل أدبائه ولا يليق بمقامك ، فإن قال الابن : ولكن شوقى بك شاعرا بابا ، يكون رد الأب غريبا جدا : « أن شوقى أمير من البيت المالك أولا وأخيرا أما الشعر فحرفة الشحاذين ص ٣٨ وهنا نسأل : كيف لا ينتبه إنسان مثقف بلغ هذه الدرجة من العلم وسافر للخارج ، إلى الذكاء النوعي واختلاف القدرات ، فالطفل الذى يتفوق فى اللغات ويبل إلى الأدب والشعر لا يمكن أن ينتج فى دراسة الطب . وكيف يعتبر هذا الإنسان المثقف الشعر حرفة الشحاذين وفى عصره نبغ عدد كبير من الشعراء ، ثم هل ينتسب شوقى إلى البيت المالك حقيقة ؟ ... لقد كانت جدته أسيرة حرب المورة فكيف صار أميراً ؟ ...

أظن أن شوقيا كان يرضيه وهمه أن يكون أميراً للشعراء وليس أميراً من البيت المالك حتى لو كان . نعود للأب ، لقد تجاهل ميل ابنه للشعر وضعف مستواه الدراسى وأدخله الطب بإصرار عنيف ، ومن عليه لأنه أدخله بسعيه ومركزه وليس بتجاهله وإمكاناته . وكان طبيعيا أن يرسب



آخر العام ، لكن الوالد يحاكمه ، وحين يدفع الاتهام بأنه دخل الطب مرغما ، وأن مستقبله في الشعر والصحافة يتفك الأب لحول الكارثة : « خير أسود » ص ٤٤ . وبعد هذا الموقف غير المبرر من دراسة الابن لم يكن موقفه من زواجه غريبا ، فحين أحب « طاهر » فتاة ممرضة رفض الأب دخولها بيته فاضطر الابن إلى مقاطعة أسرته كي يتزوج من أحب . وظل مقاطعا لها حتى مرض والده فزاره قبل وفاته بأيام . وكما ظهرت مواقف الأب من ابنه غير متفقة مع علمه وثقافته وخبرته في الحياة فكذلك نجد الأم ، إنها خريجة « الميردي ديه » مثقفة وقارئة وذات عقل ممتاز ، أضافت إلى المكتسبة العلمية ثمار الفكر والأدب وهي قد دأبت على تعليم ابنها الفرنسية وشرح ما غمض عليه من الشعر . هي بداية توحى بالتفاؤل لكننا لا نلبث أن نكتشف الحقيقة المرة ، حين نجدها توافق زوجها على كل آرائه السياسية ، وتشاركه في محاكمة الابن لرسوبه في الطب ، كما تتبنى موقفه المعادي للشعر والصحافة ، فأين الثقافة والعقل الممتاز والاطلاع الواسع إذا لم يسعفها ذلك في فهم ميول ابنها الحقيقية ورد زوجها للصواب حين يفرض رغبته المستبدة على الابن ؟

لعل الأمر مرده إلى فرض المؤلف لأى دور إيجابى تلعبه الزوجة المثقة ورفضه لأن تفضل الرجل في أى شيء حتى ولو كان فهم الابن وتربيته . وحين يطرد الابن بسبب اختياره زوجة غير ملائمة ، لا تحاول الأم تهدئة الموقف وتخفيف عنت الأب أو استمالة الابن .

إننا قد نرى في البيئات الشعبية والمتوسطة وأحيانا لدى عليّة القوم : تعارضا بين رغبات الآباء وميول الأبناء ، وقد تحدث القطيعة ، ولكن لفترة محدودة ، لا يلبث بعدها الآباء أن يعترفوا بالواقع ويستسلموا لميول الأبناء . فما هو تفسير التناقض بين العلم والثقافة والعقل الممتاز لدى الأب والأم وبين موقفهما من الابن ؟

وتصل إلى شخصية « طاهر عبيد » موضوعنا الأصلي ، إنه أسمر ذو ملامح شعبية يميل إلى البدانة ، ومع أنه ابن ذوات فقد كان لديه استعداد فطرى لأن يصبح من أبناء الشعب ، فهو أكلو يعطبعه وقد اكتسب من رفاقه — أبناء العباسية القريبة — « حب الرزمة ، فعشق لحمة الرأس ، والخول والفلافل والمبار والكيد والمشيك والحريسة والباذنجان المحلل ص ٢٤ ومع تقدمه في السن أصبحت بدائنه سببا في ازعاجه بالأمراض — أليست البدانة تتعارض مع الشاعرية أو الثقافة عموما ؟ فالتقف يدرك ما ينغمه وما يضره ، و يتحكم في شهواته ، ثم المفروض إنه مشغول بقضايا العقل وغذائه عن رغبات المعدة وامتلائها —

ولم يشر المؤلف إلى هندامه وعاداته في النزي إلا في الطفولة حين قال إنه يرتدى قميصا وينظفوننا قصيرا وتنشط شعره الطويل .

وحين طاعه وأخلاقه يقول الراوى « من أحب الشخصيات إلى قلوبنا لحفة روحه وبساطته

ومرحة» ص ١١ وقد جرب كل واحد من الرفاق أن يمارس في المدرسة نشاطا رياضيا أو اجتماعيا<sup>٩</sup>، فنيا إلا طاهرا، وبرغم أمارات ذكاء يديها في طفولته كإقباله على تعلم الفرنسية وحفظ الأناشيد، إلا أنه يعبر امتحان الابتدائية بفضل اسم والده ويحصل في البكالوريا على مجموع ضعيف.

وكنا نتوقع - اتفاقا مع العرف والواقع وتبعاً لمنطق الأشياء - كنا نتوقع اختلاف شخصية طاهر وتمييزه عن الآخرين، لأنه شاعر مثقف، وهو الوحيد الذي يعمل في مجال الفكر والأدب، لكننا لا نجد أي تمايز أو اختلاف، إنه يقع في الأخطاء نفسها و يكرر التجارب عينها و يتحدث باللغة التي يتحدثون بها.

لقد فشل في التوافق مع أسرته مثل حماده. وتزوج مرتين مسيئا الاختيار مثل صادق، ومثله أيضا سعى للبشراء من طريق لا يتناسب مع الثقافة والقيم، وكما يقول المؤلف عن لفته « بل تقدمنا جميعا في الاقتباس من قاموس الشوارع والمحار و رصع أشعاره الأولى بألفاظها المتعمدة ص ٢٤ ولنسجم ملامح الشخصية كما قدمها الأستاذ نجيب : إنه ينفي الجانب الديني تماما لديه، ولعل ضعف الوازع الديني عند كثير من المثقفين مفهوم ومقبول، وربما كانت حالة الشك التي تشاب بعض المفكرين والمثقفين في الثقافة مستساغة كذلك ما لم تتجاوز حدود الشك المعقول في الغيبات أو أهمال الفروض الدينية، وقد كان ذلك متوقعا مع طاهر عبيد. أقصد أن يكون قليل الاهتمام بالدين ضعيف الإيمان مثلا أو متشككا في بعض الأمور، أما أن يأتي بالصورة التي قدمها « نجيب محفوظ » : ملحدا بلا دين تقريرا ص ٣٢ كما يعبر سيادته فذلك غير مفهوم وغير مبرر، فلا هو قد أورد لنا ظروف معينة وأحداثا خاصة كرهته في فرائض الدين، أو جعلته يرتاب في العقيدة، ولا هو قد أشار أدنى إشارة إلى قراءات فلسفية متعمقة تجعله يستبين بالعقيدة ويرتاب في الرسل والأديان. بدون مقدمات و بلا أي تبرير يأتي شاعرنا معاديا للدين كافرا بالعقيدة ساخرا من المتمسكين بها، و يؤكد المؤلف هذه النزعة اللا دينية بنفي حدوث أي تغيير فيها مع سعة الاطلاع والثقافة، فالدين « لم يثر اهتمامه ولا شغل تفكيره ص ٣٢ وربما كان الأقرب للمنطق أن يبحث طاهر عن الحقيقة باعتباره مثقفا، لماذا لا يمارس والده شعائر الدين كما يمارسها الآخرون؟ وما هو جوهر العقيدة؟ وأين النصواب أو الخطأ؟

يقرأ في الدين شيئا، وعن العقيدة شيئا، و يقرأ في الفلسفة شيئا، حتى يصل في النهاية إلى رأي يقتنع به ويستناده. لكن المؤلف يستمر في تأكيد انتفاء الوازع الديني لدى الشاعر عبر مناسبات كثيرة، الى أن يقدم الأصدقاء في السن ويبل أدهم للاحياء الروحي والتصوف فيبرود بعض الأقوال الرمزية للتصوفة، فيفتقاه طاهر باستناده وهو يقول ساخرا: « علينا أن نشوق أن نجيشنا يوما مرتديا خرقة معرفنا عن الدنيا وما فيها ص ١٤٠ وتمشيا مع هذه الروح

المعادية للدين يكون انزعاجه من إشارة زوجته الثانية للتيار الديني الذي يعبر عن نفسه في الوقت الحالي .

واتساقاً مع هذا الموقف كان طينياً أن ينهار نفسياً وروحياً بعد فشل زواجه الثاني ومرضه فيرغب في الموت مطالياً بأن يتاح للإنسان متى أراد .

مرة أخرى : هناك أدباء ومشفقون يضعف عندهم وازع الدين ويحملون في أداء الفرائض والطقوس ، و يعيشون فترات شك وريبة ولكن الأمر لا يصل فيما أظن إلى الانحداد أو الوثنية كما عبر كاتبنا .

وأما عن نشاطه السياسي فالأمر يبدو مثيراً للحيرة : أن المؤلف يقدمه لنا في البداية محايداً تماماً ، لقد تأثر برأى والده الباشا فلم يشارك في المظاهرات أيام ثورة ١٩١٩ ونفى سعد ، وكان دائم الاعتقاد لزملائه ولأجدادهم عن الأحزاب ، ثم هولم ينشر أية إشارة إلى الحل الذي يراه مادام غير راض عن الواقع ، وفيما بين قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو تحمس لها بشدة وأعجب بالزعيم ودافع عنه ، سنوات وحدثت الخطة عام سبعة وستين فالتقلب يكفر بالثورة تماماً .. تأرجع حاداً من الشمال إلى اليمين وبالعكس .. ويرد المؤلف حياد طاهر السابق بقوله ، وإن تكن نشأته في قبلا الأرملاوي قد أقصته عن المجال السحري لسعد زعول فإنها لم تربطه بالولاء للملك ، ثم جاءت المعارك الحزبية فشحنه بالقرف والكفر بالجميع وكان يقول : « مصر جديدة بالحب ولكنها لم تجد بعد من يحبها لذاتها » ص ٣٣ وأظن أن من حق القارئ أن يسأل مؤلفنا العظيم : إذا كان طاهر قد خرج بحكم نشأته عن مجال سعد ، وهو لم يرتبط بالولاء للملك ، ومشحون بالقرف من الأحزاب ، فلماذا لم يبحث عن انتهاء آخر أكثر صحة ومناسبة لشقاوته ، انتهاء يعكس حبه لسعد وسعيه لخيرها وتقدمها ؟ . لاشك أنه كانت هناك اتجاهات وجماعات وطنية غلصة تبرا من عيوب الأحزاب السالفة ومن الولاء للملك ، فلماذا لم يبحث عنها وينضم إليها ؟ .. كلا .. إنه بطبعه وكما أراد المؤلف بارداً محايداً .. بدليل أنه حتى بعد أن التقى بمن يمثلون بعض الاتجاهات التقدمية لم ينضم إليهم . اتخذ منهم موقفاً غريباً ، وذلك حين زار مجلة الفكر التي نشرت له أول قصيدة « وهناك اكتسب علاقات زمالة جديدة ، وعرف المبادئ التقدمية من خلال نخبة من المؤمنين بها ، وتعاطف مع الإرادة الطاعنة هدم العالم القديم كله وإقامة بناء جديد موضعه على أسس علمية معاصرة ، وكأنما ود أن تبعد مع العالم القديم أفكار أبيه الكشيبة » ص ٣٨ كلام يبشر بالخير ، يعقبه هذا التعليق « لكن التعاطف لم يتجاوز حدود الصداقة للمبدأ ومعتقية دون الالتزام ببادئه أو الاندماج في سلوكياته » ص ٣٨ وتبرز مشاعره هزة قصيرة حين توفي سعد لأن رأى أبيه الباشا تغير فيه ، لكن الهزة لا تدوم ، فقد تصدع الائتلاف بين الأحزاب وعطل الدستور ونشب الصراع بين الوفد بزعامة النقاس وبين الملك تعاونه وزارة محمد محمود والانجليز ، وحين عاد الوفد للحكم وأصبح أنه جاء بمساعدة الانجليز « لم

يشرد طاهر عن أن يقول ساخرًا ألا ترون معي أن جميع رجالنا خونة» ص ٨٤ ونحن بالطبع لا نرى معه ذلك دليل وجود فئة غلصة هيأت وخططت للثورة فيما بعد .

وبدلاً من أن توثقه هموم الوطن ، وتزعجه القوضى التي حدثت في السنوات الأخيرة السابقة للثورة ، فيبحث عن سبيل للخلاص ، تجده مكتفياً بالنقد والتعليقات الساخطة ، مثل قوله عن حريق القاهرة « ما هذه بدولة ولكنها سيرك هزلي » ص ١٠٤ يأتي الانقلاب المفاجيء حين تقوم الثورة ، وأقول المفاجيء لأن المؤلف لم يبيء له بأي تلميح إلى حلم الشاعر بالتغيير والثورة ، وهو يعبر عنه بقوله : « العجيب حقاً هو حماس طاهر عبيد ، لأول مرة في عشريننا الطويلة نراه متوهجاً متألقاً كالكهرباء ، و يرقص طرباً ويتغنى بالمجد ويبب قلبه وعقله بلا تحفظ ، يقول هذا حلمي الذي لم أعرف تأويله إلا اليوم » ص ١٠٥ والعجيب حقاً حسب قول الأستاذ نجيب هو أن طاهر لم يصرح مرة واحدة عن حلمه هذا ، ولم يبحث عن تأويله في أي اتجاه ومع أية جماعة . على كل نشابع حماس طاهر الذي ملأ صدره للثورة وزعيمها « صدقوني ، إن مصر لم تعتل هذه الذروة منذ عصورها الجيدة ، كما أنها لم تشهد طيلة تاريخها هذا الرجل المعجزة » ويرد على زوج ابنته الذي يهاجم الثورة ، لا تغفلوا ثورة من انتهازيين ولكن بحسبها أن زعيمها رمز للكمال »

« إنه دكتاتور ياعمى » « بل إنه المستبد العادل » ص ١١١ ، وهو تعبير عاذع وغير دقيق ، تعبير لا يصبح أن يستخدمه انسان مثقف ، وكيف بالله يجمع الاستبداد والعدل وهما نقيضان ، وكان طبيعياً أن ينفض شعره بالتأييد للثورة ومتجزاتها فانتشرت قصائده وأغانيه عبر كل أجهزة الإعلام .

سنوات ثم وقعت الهزيمة ، فإذا بطاهر المتحمس المؤمن بالثورة وزعيمها يتقلب على عقبيه . « ولكن لم يصدم أحد كما صدم طاهر عبيد ، كأننا جن جنونا أو مات موتاً ص ١١٣ وحين يخفف عنه أحد الأصدقاء « ما من أمة يخلو تاريخها من كوارث » ، يقول بصوت مهزوم : « لكن هذه كارثة الكوارث » فإذا ذكره بالأمل في الأبناء يتساءل في حيرة أبناء الهزيمة ، وحين يذكره صديق آخر بحسبه للزعيم : « هل كفرت بالنطل » ، يصمت قليلاً ثم يقول : « أعنفد أنه يموت الآن وأنا أموت معه » ص ١١٤ وتحول شعره إلى رثاء للنفس والوطن قلم يعد يذاع في أجهزة الإعلام ، لقد اتضح بهذا اليأس المظلم أن إيمانه بالثورة كان هشاً لم تعمق جذوره ، ولذلك رسب في أول امتحان ، ولئن كان المؤلف ذكر تمسكه بخيط من الأمل أحياناً في قوله بعد الهزيمة « ها هو يظهر الثورة من سلبياتها و بعيد بناء الجيش » ، إلا أنه يظهر وهن الخيط وضعف قبضة الشاعر عليه ، وذلك حين يسمع تعليق صديقه الساخر « سيز يف يصعد الجبل من جديد » ، وهو تعليق له مغزاً ، فيسيز يف سيعود للسقوط ثانية ، يقول المؤلف عقب ذلك « لم يعد يرد على السخرية بعد أن انكسرت نفسه وانتهزمت كبرياؤه » ص ١٢٠ وغريب حقاً أن يكون الشاعر

المشقف ضيق النظرة محدود الأفق بحيث يرى في الهزيمة نهاية للزعيم «الثورة» بل الوطن كله.. وكان الحرب ليست سجالاً، وكان الثورات لا تكون حقيقية إلا إذا استمرت انتصاراتها في كل ميدان، والزعيم لا يستحق الإعجاب والتقدير إذا تعرض للخطأ مرة، غريب أن لا يفتن الشاعر المشقف إلى تكثف القوى الخارجية والداخلية، وإلى احتشاد أعداء الثورة والوطن، لا يفتن لهذا كله ويحصر سبب الهزيمة في أخطاء القائد، ولذلك يكفريه ويعتبره قد مات و يرى في الهزيمة كارثة الكوارث. ورغم كل ذلك يريد المؤلف إيهامنا بأن طاهراً كان ناصر يا فيقول أنه أساء الظن بالزعيم الثاني وتلقى النصر العظيم في أكتوبر بفنور غريب فراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل، «إنه الوحيد في شلتنا الذي عبد الراحل في حياته وقُدس ذكره بعد مماته» ص ١٣٢

فإذا انتقلنا لجمال الحديث عن المرأة ومفهومه عن الحب فإن الحب الجنسي عند أبيطال نجيب محفوظ يبدأ غالباً منذ الطفولة الباكورة: إن شاعرنا يقول عن شقيقته «لها صديقات كالأنوار يزينها ويجلسن معها في الحديقة، كالأنوار» ص ١٣ وربما كانت أولى مظاهر اختلافه عن الآخر من تتمثل في رأيه الذي أعلنه حول مفاهيمهم الجنسية في شارع كلوت بك وحول المكان نفسه فقال: «هذا معرض للنساء والرجال في غاية الشذو والسوء فعلى مر يده أن يفقد وعيه أولاً قبل أن يقدم عليه لكنه لم يكف عن الذهاب إلى هناك» ص ٣٦ ونخاض أول تجربة حب وهو في السادسة عشر مع فتاة تماثل في العمر وتعمل بمعرضه «بنت سمراء رشيدة الملامح فائرة الجسم ثائرة التهدين خفيفة الحركة» ص ٣٩ وهكذا يصبح في مجلسنا عاشقان وتنجلي في أحوالهما أعراض السحر والنشوة ولأنه مثقف وشاعر فإن عاملاً آخر غير الجمال الجسدي لابد أن يوضع في الاعتبار، «وسأله أحد الأصدقاء هل تفهمك كشاعر» «فقال على الأقل لا تسوء فهمي، وبعجيتي فيها بصفة خاصة قوة شخصيتها ص ٤٩ وحين عرف الحب قال «لعله جنون أو مرض ولكنه على أي حال يمثل السعادة في ذروتها» ص ٤٩

وهذا الكلام قد يشي بأمور منها أن عامل التوافق الفكري أو جانب العقل والشخصية وضع في الاعتبار لدى الشاعر المشقف، ومنها أن ما كتبت نظره إلى فتاته ليس فقط رشاقة الملامح وتضجج الجسد وإنما الشخصية أيضاً، ومنها أخيراً أن حبه ليس مجرد جاذبية جنسية يمكن أن تحبو وتموت، ويؤكد ذلك تعليقات متناثرة عبر الصفحات منها:

«على أي حال انضم طاهر إلى حزب الاستقرار والسعادة، وعرفنا عن طريق صادق وطاهر حبا واقعيا رشيدا، لا كالحب الذي نشهده أحيانا في السينما، ولا كالحب الذي حدثنا عنه الثقلوطي، ص ٥٩ كان بعضنا يتخاف على طاهر ردة الفعل بعد أن يتجول في رغبته، الحق أنه استمر في حبه فدل على أنه أحب حبا صادقا وفي الوقت المناسب أنجبت للشاعر ذرية، وتمل طاهر بالأبوة» ص ٦٦ شيء مطمئن أن يعيش الشاعر قصة حب تتسع في دائرتها عن إطار

الجنس الضيق ، وتستمر سنوات تبذل فيها الحبيبة - الزوجة - جهداً إيجابياً ، ففي البداية مارست عملها لتساعده على تكاليف الحياة وحين تحسنت حالته المالية « قنعت راضية بوظيفة ست البيت ولكنها حافظت بمهارة واصرار على رشاقتها و بدافع من حبها واعتزازها بزواجها عودت نفسها على النظر في الجريدة والمجلة »

« وكثيراً ما يثنى على رثيعة كنت بيت ماهرة وأم يقظة وزوجة عمة عخلصة ذكية ، تعرف كيف تبيء لزواجها أسباب الراحة والسعادة » ص ٩٦

لكن المؤلف في نفس الصفحة يبدأ في تهيئة أذهاننا للزوال القادم ولا شك أنها تغيرت أكثر من المتوقع فخفف وزنها أكثر مما يجب ، وظهرت في وجهها أمارات السن ولكنها ما تزال تعد جميلة ورشيقة وفاتقة النشاط ص ٩٦ ويستمر المؤلف في العزف على ذلك الوتر بلغت رثيعة الأربعين أو جاوزتها بتقليل ، ولكن العمر لم يزل من أهدنا كما نال منها ، بل قدر بعضنا أنها كانت أكبر مما حسبنا يوم زواجها ، هزلت بدرجة كبيرة جردتها من كافة مزايا الجسد الأنثوي وبرزت عظام وجهها فتغير شكلها وشحبت صورتها ص ١٠٣ وبغض النظر عن غرابة التغير الذي حدث ، فإن فقاة في السادسة عشر من العمر كما وصفها ، وسيدة تحافظ بمهارة واصرار على رشاقتها هذه الفتاة - السيدة - لا يتصور أن تفقد وهي في الأربعين أو بعدها بتقليل كافة مزايا الجسد الأنثوي وتشحبت صورتها ، بغض النظر عن ذلك فليس من المتوقع أن تحدث تلك التغيرات الجسدية هزة للحب الواقعي الرشيد ، لكن الروائي الكبير يقول « أجل بقي الحب القديم كما كان ، في الظاهر على الأقل ص ١٠٣ .. وعمل كل حال فإن يكن ثمة وفاء فرجعه إلى الأخلاق الطيبة ، لا إلى الغرائز الراضية » هكذا ....

ولأول مرة يصفه المؤلف إلى أنه شاعر شهير ، وكاتب معروف في مجلة تضم آخرين وأخباريات ، لأول مرة بعد انضمامه للمجلة بأكثر من عشرين عاماً ، ونشر ديوانه يقول « وتساءلنا كيف يكون الحال مع الزميلات والمعجبات » ص ١٠٣ والسؤال حيلة يتوسل بها المؤلف إلى الحدث القادم « واعتترف لنا ليلة قاتلا موجها حديثه إلى إسماعيل بالذات : زوجتي تفوق زوجتك في السوء . فقال إسماعيل : أعطيتا خير ما عندهما ، فقال بشوة أصبحت أعافها » ص ١٢٠ عجيب : كيف ينطق شاعر مثقف ، تزوج عن حب ، وفارق أسرته بسبب اختياره ، ، كيف ينطق بهذا الكلام ؟ وهل كل ما لدى المرأة جسد فقط إذا ذبل ضاعت قيمتها وعافها زوجها ؟ لو أن الأمر كذلك لنشلت ملايين الزيجات في العالم .

ثم ظهر التساؤل في شخصية طاهر بوضوح شديد حين توازن بين موقفه عندما أقدم صادق على الزواج الثاني « لعل طاهر الوحيد الذي أبدى شبه معارضة حين قال اعتقد أنه يكتفى بالإنسان زوجية واحدة إن حرص حقاً على راحة باله فقال صادق : أحسان عاقلة فقال طاهر :

النساء يفكرون بثلاثين ص ٨٢ هو اذن يعتبر الزواج الثاني - وان كانت له ضرورة - يعتبره صدمه أو إهانة للزوجة الأولى ، وكذلك موقفه حين هم صادق بالزواج للمرة الثالثة بعد فشل الزواج الثاني نجد موقف طاهر معارضا أيضا ، كانت العروس في الثامنة عشر وصادق في الستين فقال طاهر فارق العمر كبير جدا » ، وحين قال إن الأم وابنتها تركتا له الخيار قال طاهر « فاخترت ما لا يناسبك » ص ١١٦

وتسر الأيام ويقع طاهر في نفس الخطأ ... وأقول الخطأ لأن زواج صادق الثالث فشل تماما بعد وقت قصير وكذلك سوف يفشل زواج طاهر ، لقد تعرض لتجربة جديدة بعد أن جاوز الستين بقليل ، تعرف على زميلة بالجملة : شابة متخرجة من قسم اللغة الانجليزية بالآداب « غاية في الذكاء وعلى قدر عظيم من الثقافة بالقياس إلى زمانها وعصرها البالغ خمسة وعشرين عاما ، قرأت شعره وأعجبت به إعجابا شديدا » ص ١٣٢

و يبدو أنه أحس بخطأ ما هو مقدم عليه فقال على سبيل الاعتذار : « لا يوجد في دنيانا شيء صحيح سليم فلماذا أطالب أنا بذلك » ص ١٣٤ سأل غريب فالفرغ من أنه ليس إنسانا عاديا ، ولكنه شاعر مثقف فهو مطالب بما لا يقدر عليه الآخرون . و يكرر المؤلف ما قاله عند تحريره السابقة : وقال لنا كالمعتذر « الحب هو الحب ولدى حضوره تتلاشى القوى المضادة جميعا في غمضة عين » ص ١٣٤ ورعا يتصور القارئ أن الحب السابق لم يكن حقيقيا ولذا لم يصمد أمام الزمن والمتغيرات وأن الحب الجديد توافرت عوامل النجاح والبقاء ، ولكن كلا ... المهم نعود لإكمال ما حدث ، لقد سأل صادق : ورئيسة فط شفته السفلى ، وقال : كان لا بد من المصارحة ، موقف عسير ومؤلم ، ولكن متعود على مواجهة التحديات ، وهي موقعة من أنها لم تعد تملك مانع عليه ص ١٣٣ هكذا ! لا عشرة ، ولا توافق فكري ولا ألفة روحية ، ولا اشتراك في حب الابنة . وحين جادلته ابنته مدينة لقراره بالزواج : « بابا ما كنت أتصور » « فقال لها بابا : إنه شيء طبيعى ويحدث كل يوم ، فقالت بركة : وماما ؟ نحن مطالبون بالوفاء وهو شيء جميل كالحب » سكت ولم يعقب . ص ١٣٤

« ولم تعد أنوار بالحب ولكنها أتعشته بذكاائها وصادقتها وعشقها الصادق للثقافة بالإضافة التي تذوقها الحميق لشعره » ص ١٣٤ كل ذلك جميل . ولكن يدهشنا أن المؤلف يقول عن أنوار : ولكنه لم يعرف لها انشاء سياسيا ، « فهي تسمع وتقرأ ولا تصدق ولا تهتم و يتركز وعيها في الشعر ونقده ومحاولة قرضه أحيانا » ص ١٣٥

فكيف يكون الإنسان ذكيا وعلى قدر عظيم من الثقافة ثم ينحصر هذا القدر العظيم في الشعر ونقده ومحاولة قرضه فقط دون اطلاع على مجالات أخرى للثقافة « واستجاب لمغريات القطاع الخاص تحت ظيروف المعيشة ، ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت في عيني أنوار »

ص ١٣٦ وساءت العلاقة بينها تدريجياً ثم سافرت الزوجة للعمل في مجلة عربية بلندن ، ورجع طاهر للبيت القديم والزوجة الأولى ، وبعد فترة أرسل لأنوار ورقة الطلاق ، هكذا في بساطة شديدة .

وبعد .. ألا يحق لنا أن نسأل : لماذا — رغم الإشادة بالحب الحقيقي الذي جمع طاهراً مع رئيسة ومقاطعته لأسرته من أجلها وإشارته لمحاولتها إرضائه وإسعاده ، بل وعاش معها بالفعل سنوات طويلة من الوفاق — لماذا لم يبذل أي جهد لتقريبها من عالمه واستمالتها لدينه ، لماذا لم يأخذ بيدها في طريق الثقافة والأدب لتكون أكثر فهماً له وفهماً منه ؟ لماذا حين ولي شباها وبنت جملتها استدار عنها مستجيباً لنداء الغريزة الخمقاء وهو يعد الستين من فتاة في الخامسة والعشرين ؟ ولماذا بعد أن أفاض المؤلف في الحديث عن ثقافتها وذكائها وإعجابها الشديد بشعره وشخصيته ، فشلت التجربة ؟

أحد أمرين : إما أن الحب لدى المؤلف وأبطاله مجرد رغبة وقتية وجاذبية عارضة تزول بزوال عامل الجذب من الشباب والجمال أو الإبهار السريع ، وإما أن الأبطال سريعو التقلب والتغير بين يوم وآخر بلا تبرير .

بقى لنا حجب الأساس في شخصية الشاعر ، وأهم ما يمكن أن نبحث عنه ، وهو ثقافته ودلائل موهبته الشعرية . ، ولا يولي الكاتب الكثير عناية كافية — في أظن — للملامح الثقافية عند شاعرنا ، لقد ترك الدراسة المنتظمة بعد رسوبه في السنة الأولى بكلية الطب ، وفي المنزل تعلم الفرنسية من أمه ، ورغم وجود مكتبة فخمة لكنه لم يتمكن من الاستفادة الكاملة منها إذ غادر البيت وهو في سن التكوين الفكري والثقافي . وانتهى إلى الرواد : شوقي وحافظ ومطران ويشير المؤلف إلى إقبال الأصدقاء على المجالات الأسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة كإندج المنقوطة والعقاد وطه حسين والمازني وهيكل وسلامة موسى ، وعن طاهر خاصة يقول : ونهل من كتابات الرواد فلم يقتصر اطلاعهم على الشعراء الثلاثة أو مختارات أبي تمام والبيهتري ، وقال لنا :

« عما قرىب سأقرأ بالفرنسية » ص ٣٢ ويؤكد على غياب المصدر الديني في ثقافته « ولم تضاف الثقافة الحديثة جديداً إلى عقيدته » ص ٣٢ ونيس المصدر الديني فقط هو الغائب ، وإنما لم يشر المؤلف إلى أي مصدر ثقافي آخر بعد ما ذكر ، فلا فلسفة ولا تاريخ ولا سياسة ولا أدب أجنبي ولا دراسات إنسانية واجتماعية ولا اقتصاد .

وننتقل إلى تشبع موهبته الشعرية وإبداعه حيث نجد موقفاً معادياً من الأسرة انتهى بالتقطيع ، في حين يبدى الأصدقاء تشجيعاً وتأييداً عندما كان يسمعونهم تحت النخلة بمحاولاته الساذجة ، ولما احتدم الموقف مع والده شجعه اسماعيل بقوله : « السم والطاعة



للموهبة» ص ٢٧ و يؤكد الراوى إعجابهم به لأنه عرف هدفه وحدد مرتفعه ، فلم يشك أحدهم شاعر يشه « إنه يحب الشعر ويتذوقه وبدأ يبدعه ، ويجب الزجل أيضا » ص ٣٢ و يفرحون معه بكل خطوة له على طريق النجاح والشهرة الأدبية ، فكانت مفاجأة سعيدة لهم حين نشرت أولى قصائده بمجلة الفكر « واهتز ركن قشعر سرورا وطربا ، وقال حمادة : نحن نشهد ميلاد شاعر » ص ٣٨

ولما وقعت المعركة الفاصلة مع والديه بعد رسوبه واتخذ قراره بالانحياز نهائيا للأدب والشعر ، قال إسماعيل « إننى أؤيدك » وقال حمادة : أحيانا يشيت الآباء أنهم في حاجة إلى تربية جديدة »

و بفضل الإصرار وتشجيع الأصدقاء وترحيب الوسط الأدبي حقق طاهر نجاحا تلونجاح ، ثم جمع قصائده في أول ديوان بعنوان « زائرات الحديقة » ص ٩٦ و يزهو الأصدقاء بطاهر ونجاحه « ومن بين أفراد مجموعتنا الشابة يبرز طاهر كالمعمر في تألقه و ينطلق في طريق النجاح كالشهاب » ص ١١٠

لكن التشجيع والتأييد من رفاقه قد تحول إلى سحق ونقد عندما ظهر إعجاب طاهر للثورة وزعيمها ، إن صادق - الناجى الثرى - يرى في مكانته الأدبية وسيلة للنفوذ يلجأ إليها حين تهدد ثروته فيقول : « ألا تستطيع بمنزلة الغالية عندهم أن تدفع عنا البلاء إذا حم قضائهم ؟ وبدلا من أن يفهمه معنى العدالة الاجتماعية وتقارب الطبقات يضحك عاليا ويقول « لا يدفع ذلك شعرا ولا نثر » وحامده - سىء السلوك المتبذل - يقول بأسى : من المحزن وغير المفهوم أنك غلبت قيا تقول وتكتب ، عل حين ينزل إسماعيل - الوقدي الذى تطلع لمنصب ضاع منه بعد حل الأحزاب - ينزل إلى أقل درجة في الفهم والتعبير حين يقول بمرارة « شعر جميل ومضمون زبالة » ص ١١٠

ومضى الشاعر في طريق النجاح والشهرة فبدعى إلى تحرير مجلة الثورة رغم أنه ليس من المخالفين ولا أهل الشقة ، « لكن بعده عن الأحزاب سابقا ، وشعره الشعبي القديم ذكياه » ص ١١٠ وقد أقبل على تأييد الثورة في كل موقف والتغنى بكل إنجاز ونصر ، فتردد أجهزة الإعلام ما يبدعه من شعر وأغاني ، ثم كانت النكسة فأبدع شعرا يقطر بأسا ومرارة وتشاؤما لكنه ينشر شيئا قد يسمى إلى البطل الجريح . وتوفي الزعيم ، فانتقلت الأحوال : عزل طاهر من رئاسة التحرير ولم تعد الأجهزة تنشر أشعاره « و اقتصر نشاطه في تلك الفترة على نشر بعض القصائد في المجلات العربية التى تصدر في الخارج » ص ١٣١ ثم بدأت مرحلة السقوط في الهاوية .

بقى تعليق أخير على شخصية طاهر : فعين أكد المؤلف أكثر من مرة على انعدام الوازع الدينى عند طاهر أتبع ذلك بقوله : « وكان ضميره عامرا بالقيم الرفيعة » ص ٣٢ ولم تبرهن

الأحداث على ذلك قط ، هو حقيقة لم ينحرف أخلاقيا ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للشخص العادي ، لكن شاعرنا تنكر لزوجته الأولى بعد عشرة طويلة ورغم اختياره لها عن حب ورغم مطالبة ابنه له بالوفاء ، وهو قيمة رفيعة .

ثم إنه بعد أن كان شاعرا جادا ملتزما تحول للعكس فسقط في هاوية الفن السهل ، بدأ الأمر حين تزوج للمرة الثانية وناقشته زوجته في الهجرة فرفضها قائلا إن الفرص متاحة له في الداخل لأن مساح القطيع الخاص تطلب منه أغاني واستعراضات ، فاعتبرت ذلك هبوطا واستهانة بسمعه ، ورفض أصدقائه الهجرة لكبر سنه ، ولم يعتبروا تلبية طلبات القطيع الخاص هبوطا وإنما بوسعة أن يرتفع بمستوى ذلك القطيع ، ونسى المؤلف الكبير أن القطيع الخاص يهدف للتربيع عن طريق إشباع الغرائز وإرضاء الجهل وتكريس الاعتذار بدليل ما قاله بعد ذلك « وبذل أقصى ما يملك من مهارة لتجنب الهبوط ، ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت في عيني أنوار وازدادت أرباحة ، ولكن لاحظت في عيني نظرة شاردة » ص ١٣٦ وقد حاول المؤلف الاعتذار عن سقوطه « والواقع أنه استجاب لمغريات القطيع الخاص تحت ضغط ظروف المعيشة وارتفاع الأسعار ومسئوليته في الإنفاق على بيتين »

ومرة أخرى على لسان صادق « وهل من الإجرام أن يدفع إنسان عن نفسه غائلة الجوع والفقر » ص ١٣٧ ؟ ولكنه بالطبع لم يكن يدفع الجوع والفقر وإنما يسعى للشراء بدليل قوله في نفس الصفحة « أصبحت من أغنياء الانتحار » وتدفع في طريق الفن السهل بعيدا عن أنوار التي عذبته فترة كأتيا ضميره الغائب « ص ١٣٧ فتاليته إذن كانت غير حقيقية لأنها فشلت في أول اختبارها .

وفي مجال القيم الرفيعة أيضا ومدى إيمانه بها ومراعاته غا يمكن أن ندرج موقفه السياسي ، فهو في البداية رفض كل الأحزاب وجميع الانتماءات بما فيها الإعجاب والتأييد لسعد زغلول أو الملك ، فكان المستطقي أن يتجه للفكر التقدمي وأن ينادى بالتغيير والثورة ، لكننا لا نرى أية إشارة إلى ذلك .

فلم يذكر المؤلف مثلا أنه يكتب قصيدة عن الظلم أو المساواة أو الحالة البائسة للشعب قبل الثورة ولا عن الإنجليز والاحتلال والدعوة للحرية والاستقلال بل حتى عندما تعرف على الفكر التقدمي لدى الزملاء في المهلة لم يتجاوز حد الإعجاب والتعاطف دون الالتزام .

أترى يرجع هذا الموقف المتنجس الضعيف إلى انقواء المؤلف لانهام قد يوجه إليه حول إيمانه ببدأ معين ؟ فيقدم لنا بطله مترددا خائفا مهزوزا . ولماذا تنس موقفه من أسرته وتناقضه تماما مع القيم الرفيعة ، لقد اختلف مع والديه حول عمله وزواجه وغادر البيت حسنا ولكن ألا

يدفعه ضميمه العامر بالقيم إلى المحاولة مرة ثانية واثنين وعشرة لكن يسترضيها أو حتى يبررها ويسأل عنها وهو بعيد ؟

إن شيئا من ذلك لم يحدث ، وحتى حين عرض عليه صديق أن يزورها ومعه طفلة فالتفت لها سحرها وتأثيرها القوي ، وخاصة على الأجداد ، لكنه رفض العرض لخشيته ألا تقابل ابنته بما يليق بها من حفاوة ، وأكد تمت والدته الذي لا يعرفه الآخرون . ورغم كل ما قال فقد فاجأنا المؤلف بالترحيب الحار والفرحة الغامرة لدى الأم والأب حين زارها بعد مرض والده ، وطالباه بإحضار أسرته وبعد وفاة الأب السريعة طلبت منه الأم الإقامة معها بالفيللا . هو إذن لم يكن يعرف أباه كما ادعى ، ثم ألا تتعارض مقاطعته لوالديه تلك السنين مع القيم الرقيقة ؟

بقيت الأخطاء اللغوية والتعبيرية ، وهي من الكثرة والتنوع بحيث يصعب الاعتذار عنها ، وأنا لن أتعرض لما يمكن تأويله بأنه مطبوع مثل كتابة ذكي بالزاي ، وكلمة فيللا مرة بلام واحدة ومرة بلامين في سطور متتالية ، وإنما أشير لما هونتاج عن السرعة وعدم المراجعة .

وأخطاء الأستاذ غيب تنقسم إلى الأنواع التالية :

١ - استعمال كلمات عامية دراجة لا تتفق مع لغة القصة الفصحى ، ولا تعبر عما أراد الكاتب من معنى ، ومن ذلك :

١ - سجلت أصواتنا ص ٥ : أراد سجلت أو بقيت وثبت .

٢ - أنا تعبنا لأنتنى وحيد والديه ص ١١ : يقصد متعب أو تعب ، والهاء خطأ أيضا لأن المتكلم يقول والدي

٣ - وهناك اختلطت المتناقات بصوات المظلات من التوافذ ص ٤٤ : ليس في اللغة صوات ، وإنما صوت وأصوات والكاتب أراد صراخ أو عويل

٤ - استعمال كلمات مامتي ، مامته ، مامتك ، مامتها ، طوال القصة رغم أنه يستخدم كلمة أبي ، أباه ، أبيك ، والكلمة عامية تستعمل في بيئات محدودة وليست منتشرة فلماذا لا يقول أمي ، أمه ، أمك ؟

٥ - حتى السطول بات سوداوي ص ١١٧ : كان وحده في غاية السطل ص ١٣٠ : إن السطل في اللغة هوطاسة وجمعها سطول ، وقد أراد المؤلف أن يقول النشوة أو غيبوبة المخدر .

٢ - كلمات فصيحة ولكنها لا تناسب المعنى المراد مثل :

١ - ورمضان والأعياد لا تكون شهورا دينية ص ١٢ : الصحيح مواسم لأن الأعياد أيام وليست شهورا .

٢- تنشأ نشأة وثنية أو لادينية مجردة ص ١٣ : وثنى أى يعبد الأوثان أو الاصنام ولم يكن طاهر كذلك ، لادينى أى لا يتنسب أو ينتمى لمقيدة معينة وأظنه سجل فى الأوراق الرسمية وعرف فى مجتمعه بأنه مسلم ، أراد المؤلف : ضعف الوازع الدينى ولا يمارس العبادات والفروض .

٣- غير أنه السينا احتلت ص ١٣ : غير أن فقط

٤- فى تفجير موهبته الشعبية ص ٢٥ : الأدق تعبيراً أن يقول : الروح الشعبية أو الميل والانتباه لطبقات الشعب ، فلا توجد موهبة شعبية

٥- وتبين لى أنها فتاة عاملة ، فهى إما تمارس عملاً أو ترجع إلى بيتها ص ٣٩ : هناك فتاة عاملة أيضاً ولكنها سيئة السلوك ، لقد أراد فتاة جادة ملتزمة بالخلق القويم .

٦- أتم مندوب رأفت باشا مهمته فى تدريبه ص ٥١ : الصحيح تدريبه لأن المندوب لم يتدرب ولكن درب صادقاً

٧- وسقط طاهر سقوطاً شاملاً ص ٥٣ : الصحيح رسب رسوباً كاملاً أو فشل فشلاً تاماً .

٨- وجلس أمام عبيد باشا وأنصاف هاتم فى قفص الاتهام منها ص ٥٣ : طبعى أنه فى قفص الاتهام يكون منها

٣- أخطاء تتمثل فى ركاكة التعبير:

١- وهو مع ذلك مع الثورة ص ١٨ : تكرار مع ، من الممكن قوله : يؤيد الثورة أو يتحمس لها .

٢- سألتحق قريباً جداً بالجملة كشاعر ومترجم ص ٥٤ : ولماذا الكاف ؟ .. شاعراً ومترجماً ، ومثلها قوله : عرفنا سعد كمشال ، ينشئ على رقيقة كربية بيت

٣- تستحوذ الأسرار العائلية علينا أحياناً بأشد ما تستحوذ المذاهب ص ٦٧ الصحيح : تستحوذ الأسرار العائلية علينا أشد مما تستحوذ المذاهب ، أو أكثر من استحواذ .

٤- وشاركتها قلقها من قلب بات يقدرها أكثر من الأول ص ٩٢ أكثر مما سبق ، أو أكثر من الماضى .

٥- يبدو أن يعتبر نفسه شخصية عامة بما هو تاجر معروف ص ٩٦ : لأنه تاجر أو لكونه تاجراً معروفاً .

٦- فى سطور ثلاثة متتالية تكررت كلمة الفيللا ثلاث مرات دون ضرورة ص ١٠٤ وليشوا فى

الفيللا حتى تناولوا الغداء ، ودعيتهم الهائم للاقامة معها في الفيللا ولم يترك الياشا من المقار إلا الفيللا .

٧- ثم سرعان ما يترجم إلى غناء ص ١١٠ : هل يترجم الى غناء أم يتحول أو يلحن أو يصيح ؟

٤- أخطاء تعبيرية :

١- كم ضاعت من أرواح فداء للعجز الأثاني ص ٣٠ :

لقد ضاعت الأرواح فداء للعدالة والحرية وكان سعد زغلول رمزاً يجسد تلك القيم

٢- ولكن التعاطف لم يتجاوز به حدود الصداقة للمبدأ ومعتقيه دون الالتزام بمبادئه أو الاندماج في سلوكياته ص ٣٨ : ولماذا هذه الملاحظة وتكرار مبادئه ومبدأاً لقد أراد أنه أعجب نظرياً بالمبادئ التقدمية والأفكار الجديدة ، ولكنه لم يحول الإعجاب إلى سلوك عملي ، لم يقتنع حقيقة .

٣- لقد صرح المؤلف في أول القصة بأنه الراوي فقط فالمفروض ألا يتحدث عن نفسه أو ينضم إليهم فيتحدث بضمير المتكلمين ، وهو ما كان يقع كثيراً :

يقول ص ٥٣ : والحق أننا في الثقافة لم تكن نفرق بين وفدى ودستوري ولا نتأثر بمواطننا السياسية في تقدير من يستحق التقدير من خصومنا .

وفي الفقرة التالية مباشرة يقول : وبقدر ما تحظى به حياتهم الثقافية الخيرة من ازدهار وتقدم وجرأة ، فإن دراساتهم الجماعية تعثرت في الفئور المتذر بالفتل .

٤- إنها ثورة ذات أهداف جلييلة ولكن القدر عهد بها إلى شلة من قطاع الطرق ص ١٠٩ كيف يستقيم الأمران : ثورة جلييلة المهدف يقوم بها قطاع طرق ؟ أهم صعاليك العصر الحديث ؟

٥- شعر جيل ومضمون زبالة ص ١١٠

وبغض النظر عن رداءة كلمة زبالة فن الغريب حقاً أن يصدر هذا التعبير من أديب كبير - وإن يكن على لسان أحد الأبطال - فالبطل الذي نطق به محام درس الحقوق ، وهو مطلع منذ صغره ومثقف ، فهل يمكن أن يبدع شاعر - أي شاعر - شعراً متناقضاً ، جليلاً في الشكل وسيئاً في المضمون ؟ المفروض أن العمل الفني متكامل يؤثر شكله في مضمونه والعكس ، فإذا كان ردىء المضمون - أو غير مقنع - فسيكون متنعلاً يفقد الروح والحس وبالتالي غير جليل ، أما في حالة « طاهر » فإن عدم اقتناع أصدقائه بالثورة وكراهيتهم لها ، لا يعنى بالضرورة أن شعره فيها

سوء أو « زباله » لأنه هو نفسه يرى في هذا المضمون جمالا وإقناعا ولذلك نجح في التعبير عنه بشعر جميل .

٦- ص ١١٠ من الموزن وغير المفهوم أنك غلص فيا تقول وتكتب « كان هذا تعقيا من أحد الأصدقاء على شعر طاهر » في الثورة ، ومن الغريب أن يرى أصدقاءه إخلاصه للثورة محزننا وغير مفهوم بعد كل ما قيل عن فرحه بالثورة ومحاسنه لإيجازاتها ، وحبه للزعم ، ثم كيف يدع شعرا جميلا كما وصفه المؤلف إذا لم يكن غلصا للفكرة التي عبر عنها ؟ كان يمكن أن يقول الصديق إنني اختلفت معك ولا أقتنع بإخلاصك مثلا .

٧- تأثر في بعضه تأثرا واضحا بين العيب ص ١٢٠ : هل هو فن العيب أم مذهب العيب  
٨- شلطنا تستحق أن تخصص لها فصل في كتب الجنس ص ١٣٣ : كان الحديث يدور حول تجارب الحب فلماذا لا يقول في كتب الحب .

٩- يعقب طاهر على ولادة زوجته الثانية لطفلة ميتة فيقول « ليس هذا فحسب ، ولكنها اقتنعت أخيرا بأنها لن تكون شاعرة وكفت عن المحاولة ص ١٣٦  
هل يرى الكاتب الكبير من خلال الشاعر المثقف أن الولادة المتعسرة والطفلة الميتة نوع من الفشل يدعو للتشفي ، فيقول هذا فحسب ؟ و يضيف إليه الفشل في الشعر ؟  
١٠- حفيدته الجديدة نبيلة ص ١٣٧ لم تكن له حفيذة سابقة ليقول الجديدة .

١١- تعقبا على احساس طاهر بالذنب لاستجابته للقطاع الخاص ، يقول له صديق سيجي شعرك القديم شاعرا و يغفر لك ما تأخر « ص ١٣٧ : الأصل أن يتطور الإنسان للأحسن وأن يغفر حاضره ماضيه وليس العكس . « أن الحسنة تذهبن السيئات

#### ٥- استخدام حرف الجر غير المناسب

١- حافظ على حسن العلاقة مع أخيك تقاديا من وجع الدماغ ص ٦٣ :  
الأصح استخدام اللام : لوجع الدماغ .

٢- لم يتردد طاهر عن أن يقول ص ٨٤ : في أن يقول

٣- تعلق قلبه بجمرة بالصدقة ص ٩٢ : ولماذا تكرر الباء وفي اللغة متع ؟ في حراره .

٤- وتعرقت إلينا ص ١٣٢ : الصحيح علينا

٥- وكان قد أحيل على المعاش ص ١٣٧ الصحيح : إلى المعاش وكذلك استخدام العطف والاستدراك دون مناسبة مثل : ولم يترك الباشا من العقار إلا القليل وكمية محترمة من

الأسهم والسندات وقليلًا من المال السائل ص ١٠٤ ان الأسهم والسندات ليست عقارا  
كى تعطف على القيللا . وهناك أمثلة كثيرة لذلك .

٦- كان الحديث يدور عن الدين وأن طاهرا بلا دين وكذلك شقيقته تماثلانه في ذلك  
« ولكنه يقول عنها : لها صديقات كالآفاريزرنها ويجلسن معها في الحديقة ص ١٣ : إن  
ما بعد لكن مستدرك على ما قبلها ، فالمفروض أن يكون بينها تناسباً وصلة ، غير أن المؤلف  
لا يراعى ذلك في مرات كثيرة كما أنه قد يبدأ الفقرة بـ « أما » دون أن يكون ما بعدها  
تفصيلاً لما قبلها .

٦- أخطاء إعرابية أو نحوية مثل :

« وعرفنا سعد كمثل ص ١٩ : عرفنا سعدا

« إن شوقى أمير من البيت المالك ص ٣٨ : إن شوقيا ، فهي ليست ممنوعة من الصرف .  
ويعد ....

إن ما حفزنى هذه الملاحظات حول القصة هو إعجابى القديم والشديد بالرواى الكبير ، لذلك  
أتمنى أن لا تشوب عمله أية شائبة ، وأرجو أن تؤخذ ملاحظاتى من منطق الحب والتقدير .

## قائمة الأبحاث التي صدرت في الأجزاء السابقة من سلسلة «دراسات عربية وإسلامية»

### الجزء الأول

- قراءة في الترجمة العربية لمعاني القرآن الكريم
- من قضايا المنهج في علم الكلام
- المضاربة بين الوحدة أو القرص في اللغة الإسلامي
- مفهوم السلفية بين الملة الإسلامية والفلسفة الغربية
- الصبرية الأخلاقية عند ابن حزم
- دراسة الواقع المعرفي أساسي لحل مشكلات اللغة العربية في التعليم
- فاعلية الجسم المعرفي في بناء الشعر
- الوثنية ما هي ؟ دراسة تطبيقية للتصنيف المدرسة الحديثة
- قضية التأثير العربي على شعراء الرومانس
- د . عبد الرحمن عوف
- د . حسن الشافعي
- د . أحمد يوسف
- أ . د . مصطفى حلمي
- د . حامد طاهر
- أ . د . السعيد بدوي
- د . محمد حماسة عبد اللطيف
- أ . د . حمدي الكسوت
- د . أحمد درويش

### الجزء الثاني

- مفهوم التطور في الفكر العربي
- تحليل ظاهرة الحسد عند النحاسين
- التأصيل في الفكر النقشب الممارس
- تعليم اللغة العربية لغبر الناطقين بها
- تعدد أوجه الأعراب في الجملة القرآنية
- تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربي
- الرميا الشعرية لدى تارك السلاكة
- موقف نقاد الرومانسية من شعر شوقي
- قضية ترجمة الشعر
- د . محفوظ عزازم
- د . حامد طاهر
- أ . د . محمد بلنجي
- د . أحمد طاهر حنين
- د . محمد حماسة عبد اللطيف
- و . بلاشير - ترجمة د . أحمد درويش
- أ . د . محمد فروح أحمد
- أ . د . طه وادي
- أ . د . وجاه جبر



### الجزء الثالث

- تأثير فتنه الإسلام في القرون الانجليزية
- ابن باديه وفلسفة الاغتراب
- ظاهرة الجدل عند الماحظ
- العناصر الفكرية والفنية في رسالة النفران
- قضية زواج المرتدة في الخليج من خلال الشعر الحديث
- النقد الجديد وفلسفة العصر

### الجزء الرابع

- القرابات القرآنية : رؤية لغوية معاصرة
- تجديد الفكر الإسلامي عند محمد إقبال
- انتشار الإسلام في الهند
- بناء مصر الحديث : محاضرة مجهزة لفتح حسين
- استكلاك العرب بالسرمان وآثاره الشعرية
- اللغة العربية ودور القواعد في تعليمها
- أثر السرد في النثر العربي
- نظرية النظم عند عبد القاهر

### الجزء الخامس

- عبثية السجين في الشريعة الإسلامية
- الوثائق الإسلامية
- حركة التأليف في العالم العربي المعاصر
- حركة الروي في القصيدة العربية
- الأصوات والرمز في المصمم العربي
- الفروع اللغوية العربية
- نظرية الاتصال اللغوي عند العرب
- منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية
- قراءة القصيدة للمصريّة

- أ . د . محمد عبد الهادي سراج
- أ . د . محمد إبراهيم الفيومي
- د . حامد طاهر
- د . جابر السبحه
- د . نورية الرومي
- أ . د . عبد الحميد إبراهيم

- أ . د . أحمد مختار عمر
- د . عبد المحمود عبد القوي
- د . محمد عبد الحميد وقاصي
- ترجمة د . حامد طاهر
- د . علاء القنصل
- أ . د . محمد حماسة عبد اللطيف
- د . سلوى ناشم
- د . أحمد درويش

- أ . د . محمد عبد الهادي سراج
- د . عبد الوهاب شرف الدين
- د . حامد طاهر
- أ . د . محمد حماسة عبد اللطيف
- د . ولعت القزويني
- تظنون شال - ترجمة د . سعيد بحوي
- أ . د . أحمد طاهر حسين
- أ . د . يوسف نوافل
- د . حسن البشاري

## الجزء السادس

- صراع مع الطبيعة أو صراع مع الفن
- العصر النهم في حركة التجديد الشعري
- استدعاء الشخصيات الخرافية الهندية في منظومة جازيد ناه
- التحليل النصي للتصنيف : نتودج من الشعر القديم
- الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث
- الوظائف القنوية للرواية في الشعر العربي
- قضية تأويل القرآن بين الفري والمعاوية
- حديث عيسى بن هشام
- لمشائية والمنظور الإنساني
- تكرين النص الشعري عند حازم القرطاجني
- أ . د . محمود الزبيدي
- أ . د . عبد الحكيم حسان
- أ . د . محمد السيد جمال الدين
- أ . د . محمد حسنة عبد الحليم
- أ . د . حامد طاهر
- د . محمد صلاح الدين بكر
- د . محمود سلامة
- د . عصام بدي
- د . عبد الرزاق قسوم
- د . حسن الهادي

## الجزء السابع

- أعداد الداعية الملتقى
- المنهج الإسلامي في النسيب
- أحياء الفلسفة الإسلامية بين مصطفى عبد الرزاق ومحمد النال
- العلاقات الإسلامية اليونانية
- حركات التجديد الفنية ومورها في نشر الحضارة الإسلامية في غرب إفريقيا
- الإنتاج الفكري وحق المؤلف
- معارلات اليسير في النحو العربي ( القسم الأول )
- الداعية في الفكر اللغوي
- نظرية الأجل المتي عند حازم القرطاجني
- أ . د . حسن الشافعي
- أ . د . يوسف إبراهيم
- أ . د . حامد طاهر
- أ . د . عليّة الحزوري
- أ . د . عبد الله عبد الرزاق
- أ . د . شعبان خليفة
- أ . د . صلاح وادي
- أ . د . محمد عبد المطلب
- د . حسن الهادي

## الجزء الثامن

- نحو استكمال علامات الرسم الإملائي في القرآن الكريم
- أنشود جديدة على تفسير سورة يوسف من خلال اللغة المصرية القديمة
- رؤية الجيزي للحركة السلفية في مصر وشبه الجزيرة العربية
- الترجمة ودورها في الفكر العربي.
- للتج في كتاب سيويه
- محاولات التيسير في النحو العربي ( القسم الأخير)
- المصطلح ودلالته في الدرس الصوتي عند العرب ( القسم الأول )
- التراث والأصول الأوروبية للحدائق
- الناقد التخصص وتوثيق الشعر عند ابن سلام.
- أ. د. محمد حيد الله
- ترجمة : د. محي الدين بلعاجي
- أ. د. رمضان السيد
- د. نازك زكي
- أ. د. حامد طاهر
- أ. د. صلاح الدين بكر
- أ. د. صلاح وواي
- د. رامت الفريزاني
- أ. د. عبد الحكيم حسان
- د. حسن البنداري

## الجزء التاسع

- تنسيق بين كتيبة للنظم القرآني
- نحن وقتية التراث الفلسفي العربي
- خسي مشكلات حقيقية أمام
- الثقافة الإسلامية في العصر الحاضر
- المصطلح ودلالته في الدرس الصوتي
- عند العرب ( القسم الأول ) .
- محاولات تيسير النحو العربي
- نحو لقب إسلامي مقارن
- عبد الله الطائي وآفاق الشعر المعاصر
- عود الشعر دراسة في المصطلح النثدي
- أ. د. منير سلطان
- أ. د. عاطف المراقبي
- أ. د. حامد طاهر
- د. رامت الفريزاني
- أ. د. صبري إبراهيم السيد
- أ. د. الطاهر أحمد مكي
- أ. د. أحمد درويش
- أ. د. نوليق القليل

رقم الايداع

١٩٩٠ / ٥٤٩٥